المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة التعليم عن بعد
كلية الشريعة ـ الانتساب المطور

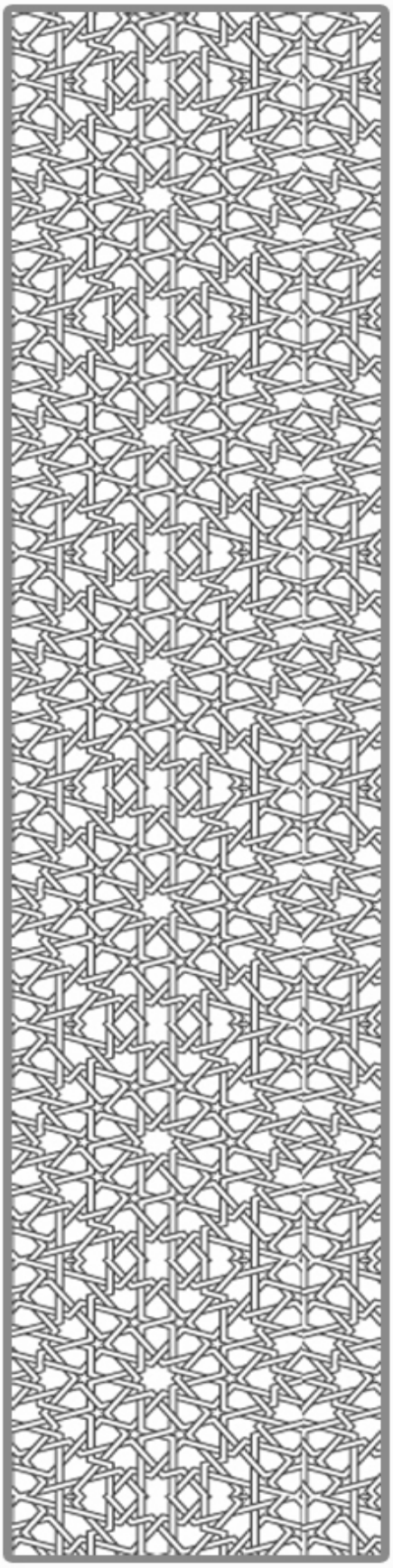

(ثقف "١٠٢")

مقرر النظم الإسلامية

المستوى الأول

أستاذ المادة:
د. عبدالله العويسي

(المذكرات تم تفريغها سماعاً من المحاضرات الصوتية)

إعداد طلاب وطالبات كلية الشريعة

انتساب مطور

نسخة مدققة و مزيدة

١٤٣٢ هـ

(كتب الله أجر كل من عمل على إعدادها وجعلها له صدقة جارية)

﴿ تـقـديـم ﴾

هذه هي الطبعة النهائية لمذكرات كلية الشريعة انتساب مطور تعليم عن بعد
وقد اعتمدت بتوفيق من الله بعد أن تم تدقيقها أكثر من مرة
من قبل طلاب وطالبات كلية الشريعة انتساب مطور
واخترنا أفضلها تدقيقاً وتم تلوينها وتنسيقها لتكون هي الطبعة النهائية
ولأنها جهد بشري لا يخلو من الخطأ ولا يصل للكمال
فنرجو عند وجود خطأ أو ملاحظة
كتابة تنبيه في الموضوع المخصص لذلك في منتدى المستوى الخاص بالمذكرة
في منتدى مكتبة كلية الشريعة: www.imam٨.com

وسوف يتم تصحيح الأخطاء بعد التنبيه عليها من قبل القائمين على إعداد المذكرات

ونسأل الله جزيل الثواب لكل من يعين على ذلك ويشاركنا فيه

(مجموعة إعداد مذكرات كلية الشريعة انتساب مطور)

الحلقة (١)

مقدمة عن صلة المقرر بالثقافة الإسلامية

سبق في الدورة التأهيلية أن أُلقيت محاضرات في الثقافة وتم التعريف بها من عدة جوانب مما يتصل بحلقتنا اليوم (موضوعات علم الثقافة الإسلامية) وقد ذكر أن أحد موضوعاتها هو:

النظم بعامة والنظم الإسلامية بخاصة...

من هذا الوجه يتضح ارتباط هذا المقرر بعلم الثقافة الإسلامية وتفرعه على هذا العلم.. هذا من ناحية اتصال مقرر النظم الإسلامية بعلم الثقافة الإسلامية، بعد ذلك ننتقل إلى الحديث عن المقرر والذي سيكون عبر حلقات متعددة حتى نأتي على نهايته.

نبدأها بالتعرف لهذا المصطلح (النظم بعامة والنظم الإسلامية بخاصة) ثم (أنواع النظم) وبعد ذلك نأتي على بقية النقاط بحسب ما يتسع لنا الوقت، وستتابع النقاط التي سأسردها في الحلقات حلقة حلقة:

١. **أولا تحديد مصطلح النظم الإسلامية وأنواعها**
٢. **ثم بيان أهمية النظام في الكون والحياة**
٣. **ثم حاجة البشرية إلى النظام**
٤. **ثم قصور العقل البشري وحده عن تشريع النظم أي بمفرده**
٥. **ثم كمال الشريعة وشمولها**

ثم بعد ذلك نبدأ في الفقرات الأخرى للمقرر في حلقات قادمة.

فأما بالنسبة **لمصطلح النظم الإسلامية** هو :

مصطلح مركب من كلمتين: (**الأولى** النظم **والثانية** الإسلامية.)

نبدأ أولا بالتعريف بالمصطلح الأول وهو(النظم) ثم بعد أن نفرغ منه ومعرفة دلالاته ننتقل إلى المصطلح بوصفه مركبا، أي مركب من كلمتين: النظم الإسلامية.

فأما بالنسبة للنظم فهو: جمع نظام، والنظام في لغة العرب يعني جمع الشيء وتأليفه، ولذا يقال: نظم اللؤلؤ، ينظم نظاما، ونظمه بمعنى جمعه وألفه في سلك فانتظم انتظاما،

ويطلق النظام على الخيط الذي نظم به اللؤلؤ ونحوه، لأن الخيط هو الرابط والجامع الذي ألف وجمع بين هذه الحبات بحيث إذا انقطع أو انخرم لتفرقت شذراً هذه الحبات التي كانت متراكبة في إطاره.

فإذن كأنما النظام هو ذلك الشيء الجامع والمؤلف والمركب الذي يدخل أو يجمع بين مفردات متنوعة ولكن بينها وجه اتساق أو وجه اشتراك.

وقد تكون مثلا حبات اللؤلؤ غير منتظمة وبأشكال متنوعة ولكن الجامع بينها أنها اتخذت حلية بواسطة هذا النظام..

هذا بالنسبة للناحية اللغوية أو الدلالة الحسية لكلمة النظام. ولكن كما هو معلوم أن لكل كلمة دلالة معنوية كما لها دلالة حسية لأن الحس يتوسط دائما في نقل المعاني، فالإنسان لا يمكن أن يعقل المعنى إلا بواسطة ما عرفه معرفة حسية في الغالب، ولذلك ما غاب عنه يقرّب له بالحس فيعطى كلمات تقرب للإنسان هذا الشيء، مثلا كما نرى في نعيم الآخرة فالله عز وجل ذكر فيها إن في الجنة أنواعا من الفواكه ولكنها ليست كفواكه الدنيا، لكن الحس لا يدرك أن في الجنة التذاذا وأن

فيها مثلا ما يتفكه ويلتذ به من المطعومات إلا بعد أن ذكرت له بما يعرفه في دنياه بواسطة الحس، فتؤخذ الكلمات المحسوسة فتطلق على الشيء المعنوي لكي يفهم.

ولذا نرى أن هذا النظام استعماله الأساسي في الحس ولكنه أطلق على الأشياء المعنوية التي تنتظم بها حياة الناس سواء الفرد أو الجماعة.

مثلا: النظام يطلق (على السيرة والهدي والعادة.) وقد تكون للإنسان الفرد وقد تكون للمجتمع عامة، فما من فرد إلا وله أسلوب حياة يميزه حتى الأخوة في البيت الواحد، نجد بينهم اشتراك واختلاف، اشتراك مرجعه :اجتماع سواء كان محدودا الذي هو الأسرة أو أوسع الذي هو المجتمع. ولكن لكل منهما سيرة. وهذه السيرة إذا أطلقناها على الفرد كأنما مثلت الجانب الخاص الذي له وليس للآخرين المشاركين معه، وقد تكون كما قلت السيرة للمجتمع بعامة، فيقال سيرة المجتمع الإسلامي، والغربي وهكذا..

فهي أطلقت إذن من الناحية المعنوية لتدل على:

الهدي: أي طريقة السير في الحياة أو أسلوب الحياة

والسيرة :سواءً كانت سيرة فردية أو سيرةً اجتماعية.

والعادة:لماذا أطلق عليها العادة؟ لأن العادة فيها منتظمة، فيها انتظام واستمرار وتكرار فإذا صار في الشيء استمرار ونظام وتكرار صار نظاما،

وسمي النظام بهذا الاسم من الناحية المعنوية على **قوام الأمر وعماده** أي ما يقوم به الأمر وما يصح ويصلح به فيقال نظام البلد الفلاني، لأن البلد لم تقم إلا بهذا النظام لو اختل النظام اختل البلد، فهذا قوام حياة هذا المجتمع نظامه الذي ينتظم سلوك أفراده وينتظم علاقاتهم ويوزع أدوارهم ويُقسم الأعمال فيما بينهم ويجعلهم على هدي وسيرة منتظمة وقد انتظمت وانضبطت أحوالهم، هذا من الناحية اللغوية، حسية أولاً ثم معنوية.

أما من الناحية **الاصطلاحية** فله إطلاقات متعددة يطلق بمعنى:

عام : وهو في هذا المعنى أقرب أيضا من الناحية المعنوية وقد يكون بشكل أخص من الناحية المعرفية، فيقال النظام عن المنطق الرياضي أنه نظام، ويقال النظام الطبيعي أو النظام الكوني، ويقال النظام الاجتماعي، فإذن النظام بشكل معنوي قد يكون في المجال المعرفي ..

فمثلا المنطق هو :نظام للفكر يسير عليه مرحلة مرحلة حتى يصل إلى النتائج،

المنطق الرياضي: أيضا يرتب العقل في حركته حتى يصل إلى النتائج أو يبرهن عليها،

كذلك النظام الكوني: هو اتساق لهذه الموجودات المتعددة والمتنوعة في الكون أمسك بزمامها بحيث سارت متسقة منتظمة، وكذلك إذا قلنا النظام الأخلاقي والإجتماعي كأن الأخلاق ليست شذراً وموزعة وإنما الأخلاق لها نظام وقوام أساسه مثلا في الإسلام الاعتقاد، وإن كانت الأخلاق عملية لكنها لا بد أن تقوم على أساس نظري، سواء كان معتقدا أو كان معرفة، أو كان الأساس النظامي الذي اصطلح المجتمع عليه بحيث أنه لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، كل هذه تعتبر قواما لهذا النظام، هذا من الناحية العامة.

ويطلق أيضا كما قلت في الحياة العامة فيقال: نظام الأسبوع، فلدينا مثلا السبت والأحد، لا يمكن أن نقول الأحد يتقدم على السبت، وكذا العصر لا يسبق الظهر، كذلك الترتيب المكاني، لو أخذناه على ترتيب البيت لوجدنا مقدمة البيت سابقة ثم

ما يكون عادة لضيوف صاحب المنزل ثم خدمات المنزل وهكذا، فترتب بحسب وظائفها أو أهميتها أو بأي نظام آخر، وهذه تختلف بحسب الشعوب، فلا يمكن أن نجد نظام المنزل واحد في كل المجتمعات، أيضا النظام العددي على الترتيب العددي، وهكذا هي نظام، ونحو ذلك من الأمور، كنظام الأجناس أو الأنواع أو الغايات، فلدى الإنسان غايات (أولية وفرعية) نجد أنه يبدأ بالأولية فإذا أشبعها اتجه للفرعية.

حتى الشرع هو نظام لذا نجد مقاصد التشريع أتت في نظام.

مثلاً :المقاصد الضرورية ثم الحاجية ثم التحسينية، وهكذا كل شيء لابد له من نظام، هذا كما قلت بالمعنى العام للنظام.

وهناك المعنى الاصطلاحي:

ويراد به مجموعة المبادئ والتشريعات والأعراف وغيرها من الأمور التي تقوم عليها حياة المجتمع وحياة الدولة وبها تنتظم أمورها.

هذا التعريف يلحظ ما سميناه قوام النظام، فهو متكون باعتبار وجهاته المتعددة وباعتبار ما قام به، فإذن المجتمع له مبادئ يؤسس عليها، ثم تتأسس عليها المبادئ الأخرى من التشريعات والأعراف وسائر التصرفات، فلكل مجتمع مقاييسه الاجتماعية، هذه المقاييس لها وجه إلى معتقده ولها وجه إلى معارفه، فالمجتمع البسيط الذي معارفه بسيطة نجد أنه يتأثر نظامه بهذا المستوى المعرفي وبعقائده، والمجتمع الذي تطور وتعقد كثيرا أيضا يتأثر بهذه القضية ويرتبط بها ارتباطا كليا.

هناك الناحية القانونية: فهم يطلقون أيضا على الأنظمة أنها شريعة إذا اتصفت بالانسجام العام في مجموعها وانتظمها سياق واحد لانبعاثها عن روح واحدة.

أما النظام ونحوه فهو: مجموعة قواعد وأحكام حول ظاهرة واحدة أو جانب من جوانب الحياة فقط فهنا إذن تفريق بين نظام وبين شريعة متكاملة. وقد ورد في القرآن الكريم {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} هذه الشرعة شاملة لأوجه الحياة ولذلك ما من مجتمع إلا وله شرعة تنتظم أموره وتنوعه.

الجانب الآخر ما يتصل بتعريف النظام في الإسلام، نحن أتينا على تعريف النظم بعامة وبينا المراد بهذا المصطلح، ننتقل الآن لكي نعرف دلالة المصطلح في تركيبه.

فكلمة إسلامية منسوبة إلى الإسلام.

والإسلام حينما يطلق: يراد به **الدين الحق**، لأن الإسلام قد يرد ويراد به التوحيد، وبالتالي قال الرسول يتحدث عن الأنبياء (نحن أبناء علات لرجل واحد) يشير إلى وحدة الدين في جوهره وأصوله الاعتقادية والقيمية والأخلاقية وتنوع تشريعاته، فاختلفت من ناحية تنوع التشريعات وتفاوتها من حيث الشدة واليسر ونحو ذلك، فالشاهد أن الإسلام قد يطلق ويراد به المعنى الاعتقادي الذي يجمع الأديان كلها من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا تعريفه ولكن حينما نطلقه هنا نعني به: الدين المنزل على النبي محمد والذي ختمت به الأديان، فهذا الدين تضمن نظماً لحياة البشر،

فعندما نقول **النظم الإسلامية** :

نريد **بها الأحكام والقواعد التي شرعها الله عز وجل لتنظيم أعمال العباد وعلاقاتهم المتعددة المتنوعة والمنبثقة عن العقيدة الإسلامية** سواء كان ذلك في مجال السياسة أو الإدارة أو الاقتصاد او الاجتماعي أو أي **جانب من جوانب الحياة**، هنا قد يقال وما شأن الشرائع بهذه الجوانب المدنية؟

لهذه النواحي المدنية جانبان: **جانب فني** (مصدره التجربة) ويشترك العقل في تنظيمها وفي استثمارها ومن هذا الباب قال النبي (أنتم أعلم بشؤون دنياكم) ولا يعني قوله صلى الله عليه وسلم إن الشرع والدين لا دخل لهما في الحياة المدنية ولا في توجيهها، وإنما يبين النبي أن توجيه الحياة المدنية وتطويرها وإثرائها جانب منه متعلق بالتجربة البشرية، فينبغي أن لا يخلط الناس بين ما هو من تجارب البشر ومن تنسيق العقول، وبين ما هو من مصدر الشرع أو ما مردّه إلى الله والرسول حتى يحمي العقول ويحمي التجارب من التداخل وإفساد الفهم، إذن حينما قال النبي ذلك يفهم منه أن الإسلام يشمل الناحية الدنيوية في تشريعاته مما يتصل بمرضاة الله سبحانه وإقامة الخير والعدل والحق بين الناس، ولكن لا يعني أن الإسلام يحكم التجربة نفسها بمعنى أنه يقول إن نتيجة التجارب هكذا، هذا ليس فيه أحيانا سوى إشارات في القرآن لكي يطلق العقل لاستثمار ما أعطاه الله سبحانه فينطلق الإنسان مستخدما ومجربا ومطورا معارفه ويعرف بنفسه كيف يمارس حياته ويعرف النافع ويطور ويجتنب الضار، فلا نخلط بين ما تحتاجه النظم البشرية من التجربة ومن تدخل العقل، وبين ما مصدره شرع الله عز وجل، فالتباس الفهم في هذه النقطة هو الذي جعل الناس يتصارعون بينهم، أي هل المصدر الشرع أو المصدر الدنيا وبالتالي لا دخل للشرع في هذا الجانب.

ولو نظر الناس إلى أن كل شيء يتضمن جانبين: جانب فني وجانب تشريعي لارتاحوا من هذا الأمر وتوصلوا إلى ما يهديهم ويكفيهم.

بهذا نكون قد أتينا على تعريف النظم الإسلامية.

الحلقة (٢)

سوف تكون هذه الحلقة في الحديث عن أنواع النظم الإسلامية، قبل الحديث عن أنواعها أود أن أذكر بما سبقت الإشارة إليه في الحلقة السابقة لأهميته في الحديث عن النظم.

فقد أشرت إلى أن التباس قد حصل لنا في هذا العصر، فيما يتعلق بدور الدين في الحياة الاجتماعية أو صلة الدين بالنظم وبالتشريعات الاجتماعية وربما استدل البعض بقول الرسول عليه الصلاة والسلام (أنتم أعلم بأمور دنياكم) فاصلا ذلك الدليل عن غيره، أو عن سياقه، فإذا فُصل عن سياقه وأُخذ مستقلا فهو لا شك يدل على أن الدين لا شأن له بالحياة، لكن هذا الكلام غير صحيح وهذا الفهم غير مستقيم، فإن النص يجب أن يكون في إطاره، أن يكون داخل النصوص أو تفهم علاقته بالنصوص الأخرى، ومن حيث المصدر الأساسي للدين، وما يهدف إليه ونحن نعلم أن **الهدف الأساس للدين هو:**

أن تتحقق عبادة الله وحده {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ }

فإذا كان هذا هو الهدف، فإنه يشمل الدين والدنيا لا يمكن أن يتحقق بصورة مثالية ورائعة إلا إذا انتظم مصالح العباد وأدى إلى مرضات الله عز وجل عن تصرفاتهم فيما بينهم، فليست المسألة هي علاقة بالله عز وجل، وإنما علاقات متعددة وفق ما يرضي الله سبحانه، لذا ينبغي أن يفهم هذا النص بعلاقته مع النصوص الأخرى والغاية التي جاء الدين من أجلها ولا يفهم بصفة مفردة عن غيره وعن هدف الدين الأصلي فلما قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(أنتم أعلم بشؤون دنياكم) نعرف متى قال هذا الشيء، ولم قاله، قاله بالنسبة لتجربة بشرية عرف الإنسان من خلالها كيف يثمر النخل ثمرا طيبا، وكان النبي عليه الصلاة والسلام مر ذات يوم على رجل يلقح النخل وقال له :

(**لو لم يفعل هذا لصلح**) وكأنما عليه الصلاة والسلام يريد أن يُنبه القلوب إلى ما وراء الأسباب الظاهرة وهو أن كل شيء إنما يتم بإرادة الله سبحانه، فإذا شاء أجراه على غير العادة، وإذا شاء أجراه وفق العادة، وقد عُلم أن الله سبحانه وتعالى أنه يجري الأمور مجرى العادة، ولو لم تجرِ الأمور هذا المجرى، لما انتفع الناس بهذا الكون لو كان في كل مرة يتجدد في حال أخرى لما استطاع الناس الانتفاع به واحتاجوا إلى تجربة فردية لكل منهم في كل شيء يعمله، لكن من فضل الله على عباده ومن عظيم حكمته أن جعل هذا الكون منتظما بحيث أن الإنسان يسبره ويستقرئه ويستخلص معرفةً من خلالها يستثمر هذا الكون، ويدخل البيوت من أبوابها، فالنبي صلى الله عليه وسلم يعلل أن مقتضى الحكمة أن يلقح النخل لأن هذا مجرى العادة وما تقتضيه التجربة، ولكن أراد أن يلفت القلوب من التعلق بالسبب الظاهر إلى التعلق بالله سبحانه وتعالى، ففُهِم قول النبي فهما خاطئا وظنوا أن لا داعي إلى تلقيح النخل، فتركوا النخل دون تلقيح، فلما جاء نهاية الثمر وقت صلاح التمر، جاء شيصاً غير صالح للأكل، ولما سألهم النبي صلى الله علية وسلم لماذا هذا التمر بهذا الشكل قالوا: أنت قلت (**لو لم يفعل هذا لصلح**) وحتى يقطع الطريق الفهم الخاطئ وضع حدا فاصلا عليه الصلاة والسلام بين ما مرده إلى التجربة وما مرده إلى الوحي، وقال فيما معناه (**إذا أخبرتكم عن الله فخذوه وأنتم أعلم بشؤون دنياكم**).

إذن هناك مجالان ويجب أن لا يختلطا، **المجال الأول**:

١-**المجال التشريعي**: الذي مصدره الوحي، والعقل لابد أن يهتدي بالوحي.

٢-**المجال الفني**: الذي يرجع للإنسان واكتشافاته ولما أوجده الله في هذا الكون، وجعل هذا الفاصل حتى لا يخلط المسلمون في هذه القضية، ولكن للأسف ظهر الخلط كبيرا، إما في محاولة إضفاء الدين، وأخذ التجارب من الدين أو أخذ الفني من الشرع أو العكس، رفض الشرع وبالتالي الحكم بأن التشريع يقتصر على الأمور الأخروية مما يتعلق بالعقائد أو العبادات، أما ما يتعلق بالعمل وانتظام الحياة وتوجيهها فالشرع لا شأن له بذلك!

هذا أول ما نشأ في مجتمعات أخرى حيث وجد إشكاليات أو وجد الخلط بين الدين والدنيا فأحدث هذا رد فعل لاسيما لما تقدمت العلوم والمعارف لديهم فوجدوا أهل الدين يقولون في الدنيا بشيء يخالف التجربة، ويخالف منطق العقل، فلما وجدوا ذلك وجدوا أنفسهم في حرج إما أن يقبلوا بكلام هؤلاء برغم من معارضته للمعرفة والتجربة وإما أن يقبلوه، وبالتالي يعيشوا في ضلالة وفي خلط، فكان أن اختاروا الطريق الآخر فرفضوا هذا جملة وتفصيلا وهذا هو الخطر، إما القبول المطلق أو الرفض المطلق، وكلاهما ذميم؛ فللشرع مجاله وللتجربة مجالها، وينبغي ألا يخلط بين الأمرين، فنتائج التجربة المتصلة بالإنسان يجب أن تهتدي بالوحي، ولذلك نرى ما يتعلق بالهندسة الوراثية وبعض ما يتعلق بالطب وما يتصل بمسائل التناسخ أو مسألة الأسلحة النووية ونحوها من القضايا التي تفيد البشر أو تضرهم هي نتيجة تجارب نعم، الجانب الفني قال كلمته، لكن لابد للجانب الشرعي أن يقول فيها كلمته، وحتى عند الآخرين يحتاجون إلى سن قوانين وتشريعات لكي تنظم نتائج هذه العلوم وتجاربهم وما يتصل بحياة البشر.

وإذا عُلم هذا زال الإشكال وعُرف أننا حينما نتكلم، نتكلم عن المصدر التشريعي وليس المصدر العقلي بما يتعلق بحياة الناس التي مصدرها التجربة أو العقل، إذا جانب منها هذا وجانب منها ذاك، وقد نظم الدين جهة الأمر حتى لا تختلط المفاهيم ولا تلتبس.

ننتقل حينما اتضح هذا مادام الدين وضع لتوجيه الحياة كلها فلابد أن يشتمل على نظم متعددة تكون بها قوام الحياة واستقامتها على ما يرضي الله سبحانه وتعالى ويحقق مصالح البشر، ليس المسلمين وحدهم وإنما البشر عامة، فالإسلام كما

نظم حياة الفرد نظم حياة المجتمع ونظم العلاقة بين المجتمع الإنساني وأفراده أو الكيانات التي يتكون منها المجتمع الإنساني لماذا؟ لأن الإسلام لا يعمل في فراغ ولا يطالب الناس بما ليس في طاقتهم، وإنما يراعي أحوالهم وما جبلوا عليه وما فطروا عليه وما تقتضيه حياتهم وما تتطلبه وما فيهم من نوازع، وما يحدث لهم بناء على هذه النوازع من تظالم ونحوها على ما سيأتي الحديث عنه!

إذا كان النظام أو النظم في توجيه حياة الناس، بالتالي سنجد أنها في كل مجتمع من المجتمعات، سنجد أن النظم موجودة في كل مجتمع من المجتمعات، لأنه لا يمكن أن يقوم أو يتحقق مجتمع بدون نظام.

وبما أن الإسلام جاء لتوجيه حياة الناس وإسعادهم.. من الضروري ومن المنطق أن يأتي بأنظمة متعددة تشمل أوجه الحياة البشرية بحيث تغطي كل جوانبها، ولا تغفل جانباً من الجوانب... قد يقول قائل: ولكن لو استعرضنا مثلا ما يتعلق بالجانب العملي أو بالإحكام مما ورد في القرآن الكريم لوجدنا الآيات محدودة حيث لا تتجاوز ٥٠٠ آية ما يتعلق بأحكام العملية، إذا كان هذا الأمر والحياة متعددة الجوانب، والحوادث لا تتناهى تتكاثر وتحتاج إلى استجابة دائمة ودائبة ولا تقف الحياة عند مرحلة واحدة، وإنما تتطور بتطور الوسائل وبتطور المعارف و التلاقح والتجارب الإنسانية.. هذه المستجدات لابد وأن تحتاج إلى تشريعات.. فأنتم تقولون إن الإسلامي شامل لكل أوجه الحياة..

أقول: نعم! إن الإسلام قد جاء بقواعد كلية أساسية استُنبِطَت من مجموع القرآن الكريم ومن مجموع السنة المطهرة ووضعت هذه القواعد الكلية واستنبط العلماء هذه القواعد من استقراء النص القرآني ومن استقراء الحديث النبوي.. **من هذا الباب تفهم مقولة**: الإسلام شامل لجوانب الحياة كلها.

نحن الآن بصدد الحديث عن أنواع النظم، الإنسان كائن كما يقولون ديني، البعض يسمي الإنسان حيوان ناطق، لكن هذا نظروا إليه من حيث إنه كائن حي، ومن حيث أنه كائن حي متميز بالنطق مقابل هذه الحيوانات التي لا تنطق، لكن لو أسسنا على مفهومنا القرآني لم نقصر النطق على الإنسان، لكنهم حدوه وجمعوا بين جانبين فصح هذا الحد من جانب، وجمعوا بين الحياة والنطق في نطاق الكون المعروف، وهناك حيوات أخرى ليست كحياتنا، لكنها لكائنات ذكر الله عنها، ونحن نؤمن بوجودها انطلاقا مما أخبرنا الله عز وجل العليم بكل شيء.

وليس مصدرنا في المعرفة هو الحس وحده، حتى نقصر الكائن الحي على الحياة الطبيعية كما نشهدها، في حياة الإنسان وفي حياة الحيوان، وفي حياة النبات.. وإنما هناك حياة أخرى **مثل: الحياة النارية** للجان **والحياة النورانية** للملائكة، بل هناك حياة للكون كما في القرآن، الكون في القرآن ليس صامتا! الكون حي عامل ناطق عابد من خلال ما نعرفه من كلام الله بل محب وله شعور

النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم كان على جبل أحد فرجف رجفة فقال: أثبت أحد إنما عليك نبي وصديق وشهيدان، وقال بالنسبة للمشاعر من هنا أثبت وعيا لهذا الجبل ولو لم يكن واعيا من العبث مخاطبته، وحاشاه صلى عيه وسلم عن العبث، وكذلك حينما قال عليه الصلاة والسلام (أُحد جبل يحبنا ونحبه) وفي القرآن الكريم: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} (٢٩)

لا نريد أن نقول إن هذا من قبيل المجازات، ونحوها نحن نقول أن هناك حقائق غيبية قد لا نراها وهناك حقائق حسية إذا كان يريد أن يحاكم النص على مستوى الحس فإن التجربة على مستوى الإنسان تعتبر مجازا، ولكن بالنسبة للخلق كما أوجده الله عز وجل هي حقيقة لا ندركها، وإن كان العلم بدأ يتوصل على بعض هذه الحقائق كأن النبات له مشاعر بحيث

يتأثر بالألم إذا أزيل شيء من أغصانه أو أزيلت شجرة من جانب شجرة أخرى فقد تتأثر الشجرة التي مازالت بمكانها، هذا جانب آخر، والعلم الآن يشهد بهذه الحقيقة، التي غير مداركه بالنسبة لمستوانا لأننا نحن نعي في نطاق معين، فبصرنا بين حدود معينة، وليس كل ما لا نبصره، هو غير موجود، الأمر الآخر.

كذلك السمع ونحو ذلك -ولا نريد أن سنطرد كثيرا في هذه القضايا- لكن لأهمتها في توسيع الوعي، الوعي مصيبته أنه أحيانا يحدد بالمادة، وإذا حدد بالمادة،لم يفهم خارج نطاق المادة ولكن الوعي يمكن أن يكون أوسع نطاقا، لاسيما إذا استخدم الإنسان خياله، فيمكن أن يستوعب الكثير مما جاء به الدين بعد أن آمن به إيماناً لاشك أن الأساس هو الإيمان لكن العمل يثمر صفاء في قلب الإنسان فيدرك ويصل إلى معرفة أوسع وأعمق مما يصل إليه إذا حصر نفسه في المجال المادي، لذلك بين الله عز وجل الفرق بين المؤمن وغيره في فهم القرآن **قال تعالى:** {وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}

وفي بداية سورة البقرة: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} فهنا إذن الإيمان له دور والتقوى لها دور في اتساع الوعي وإدراك الأمور التي قد لا يدركها الإنسان بحسه القريب.

تذكير بما تمت مناقشته:

- إزالة شبهة الاختلاط بين مفهوم ما مصدره التجربة الإنسانية و ما مصدره الشرع.
- سبب التفريق بين الديني و الدنيوي التي لها صدى في الفكر الحديث.
- النظم أنه أمر طبيعي أن يكون الدين شاملاً لشؤون الحياة.
- نظم الإسلام من حيث شمولها وأسباب هذا الشمول؛ ومصدره وكيف يتأتى.

الحلقة (٣)

❖ أنواع النظم الإسلامية

سنتناول في هذه الحلقة أنواع النظم الإسلامية التي تشمل أوجه الحياة كلها و سأحاول ذكر هذه النظم تدريجيا.

أولا: النظام العقدي

فمن المعلوم أن كل مجتمع لابد له من عقيدة يرتكز عليها ويؤمن بها، سواء كانت العقيدة مصدرها ديني أو معرفي أو مصدرها أعراف وعادات أو نحو ذلك، لأن الإنسان كائن اعتقادي لابد أن يعتقد حتى وإن كان اعتقاده مستمداً من علوم ومعارف وقواعد معينة، فلا يمكن أن ينفك بحال من الأحوال عن الاعتقاد، ولأن الإسلام جاء لهداية الإنسان ولإصلاحه فكان لابد وأن يأتي بتوجيهات كاملة يتشكل منها تصور عن هذا الوجود وما يحويه من حيث المصدر ومن حيث المصير، إذن لدينا الإنسان دائما يتساءل من أين أتيت؟ وإلى أين أنا ذاهب؟ ولماذا أتيت؟

فكان في الدين إجابة عن هذه الأسئلة، فجاءت الأمور الاعتقادية هي الأساس التي يبنى عليه فكانت بمثابة نظام متكامل يتأسس على الإيمان بالله عز وجل، حيث وجود الله الخالق سبحانه وتعالى، هناك من يجحد وجود الله سبحانه ويحيل على المادة، ثم من حيث الربوبية فالله عز وجل موجد الخلق وربه ومليكه وممده، فالإيجاد والإمداد والتصرف له سبحانه، ثم من حيث ألوهيته، معنى ما يقتضيه أولا الكمال الإلهي أنه مستحق للعبادة وحده، وما تقتضيه الربوبية شكر المنعم والتسليم له والأدب معه والرجوع إليه، فإلوهية الله سبحانه والاستعباد له النتيجة الطبيعية لكماله ولربوبيته، ثم من حيث الأسماء والصفات (أسماء الله وصفاته) وأثرها في حياة الإنسان، وما تثمره من خير ونور وهداية وتقى وصلاح واستقامة وتعقل

وإدراك للحكمة وسير باستقامة ونحو ذلك، وما يتعلق بالآخرة بالمصير، قبل ذلك ما يتعلق بكيف يعمل الإنسان كيف يؤمن من الناحية العقدية، وما الطريق إلى الإيمان، فتح الأفاق لكي يؤمن الإنسان إيمانا يقينيا باستخدام سمعه وبصره وفؤاده، وتسليماً لله عز وجل في هذا الدين.

فإذن لماذا وكيف وبماذا يؤمن؟ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، لو تأملنا هذه الأركان الستة لوجدناها نظاما، لها نظام وقوام، فإذا قلنا أن الله سبحانه هو الكامل، فمن مقتضى كماله أن يوجه خلقه ولا يتركهم هملاً، ومن مقتضى الحكمة أن يكون هناك مصير يجازى فيه كل الناس الخيّر بالخير والشرير بالشر، ومن مقتضى وصل البشر بربهم وجود من يدلهم على الخير (الأنبياء)، ووجود الصلة بين الغيب والشهادة (الملائكة) الذين يصلون بين الغيب والشهادة، وأيضا وجود النظام الذي تنتظم الحياة في ضوئه (الإيمان بالقدر خيره وشره).

وجدنا أن النظام العقدي هو تعبير عن الحقيقة أو عن حقيقة الوجود بنظرة منطقية عقلانية، هذا الذي جاء به الشرع والمتفق مع العقل الصريح، فهو الموافق للفطرة والموافق لمقتضى الحس المتجرد من الهوى، والعقل المتجرد من الهوى إذا سلمت أساسا بأن هناك إله كامل وأنه هو الموجد للخلق وهو المدبر لهم فلابد أن تسلم بهذه الأركان لأنها المعبرة عن هذا التواصل أو هذه الصلة بين الله و بين خلقه وهي مقتضى عدالته وكماله، فهكذا يتضح أن العقيدة نظام في الإسلام وليست شيئا مفرّقا ولا مجموعة من القضايا المشتتة، إنما هي منتظمة للحياة كلها بحيث يكون الإنسان في كل عمل يعمله مؤسس على ما يعتقده، مسلم الوجه لله عز وجل فيما يأتي ويذر، فهذا هو إذن الجانب العقدي، ذكر ما يتصل بالجانب الغيبي ابتداء بالذات الإلهية، وما يتصل بها من هذه الأركان المذكورة، وما يكون في يوم القيامة من الأمور الأخرى ومن الجنة والنار وغيرها مما هو مشمول في اليوم الآخر، جاء ذكره تفصيلا، ولكن كله متصل باليوم الآخر، واليوم الآخر متصل بالإيمان بالله، فهكذا يتضح لنا كيف أن العقيدة نظام وليست شيئا مفرقا ولا مفككا، هذا نظام العقيدة الذي يعتبر الأساس الذي يبنى عليه كل نظام آخر في الإسلام.

ثانيا: نظام العبادة

العبادة نقصد هنا: العبادة الخاصة أو الشعائر التي أمر الدين بإقامتها، لأن العبادة في الإسلام وكما تقدم في برنامج الدورة التأهيلية أن العبادة لها معنى خاص وعام.

وإنها **بالمعنى العام تشمل**:حياة الإنسان كلها حينما تتفق مع مرضاة الله، كسبه وتجارته وبيعه وشرائه وحركته وزواجه وصلته لرحمه وسيره في الأرض.

كلها داخلة في العبادة بالمعنى العام لأنه حيثما ما كان العمل موافقا للدين ومرضاة الله كان عبادة وإن لم يقصد الإنسان بها، قال النبي صلى الله عليه وسلم (وفي بضع أحدكم صدقة) فاستغرب الأصحاب رضي الله عنهم من هذه الكلمة وقالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر" الأمر طبيعي أن يأتي الإنسان شهوته سواء كان له أجر أم لا، سيأتي هذه القضية فقال حتى يبين لهم أن القضية ليست فيما جاء فيه حكم أعمل كذا أو لا تعمل كذا، ولكن ما اندرج تحت هذا الحكم فله حكمه، فالله عز وجل قد شرع الزواج، فما اندرج تحت الزواج فالإنسان فيه مأجور، والزواج إذا أجريته وفق سنة الله ورسوله مأجور أنت فيه، وإذا لم تجره عليه فأنت مأزور، فحتى يبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن التصرفات البشرية الدنيوية المعاشية مندرجة في دين الله ومثاب الإنسان عليها حتى وإن لم ينوِ هذا الشيء، فقال لما استغربوا وتساءلوا: (**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟" قالوا: نعم، فقال: "فكذلك إذا وضعها في الحلال**) فإذن الحلال والحرام

شامل لكل ما في الحياة، فما اندرج تحت الحلال فالإنسان مأجور عليه وإن لم تدخل النية في ذلك، الإنسان يذهب إذا بيته فيأكل، إذا كان أكله حلال فهو مأجور، يذهب ويشتري لامرأته ملابس، ما دام أن هذا لامرأته وأولاده فهو مأجور ونحو ذلك، على كل لا نتوسع وننطلق في مفهوم العبادة العامة إنما أردت الإشارة.

وما نقصده بنظام العبادة نقصد نظام العبادة الخاصة، أي نظام التعبد لله سبحانه بالشعائر التي شرعها

فأركان الإسلام خمسة:(شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله اعتقاداً وقولاً) والعمل بالإسلام عمل بها، ولكن العمل الذي يتفرع عليها مباشرة هو ذكر الله، ولذلك كان الذكر أعظم أعمال العباد وأفضلها،

(**ألا أخبركم بأفضل أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأفضل لكم من إنفاق الورق الذهب والفضة، وأفضل لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم"، قالوا: بلى يارسول الله، قال: "ذكر الله**) .

◈**فالشاهد**: أن الشهادتين يتفرع عليها ذكر الله عمليا، ثم لدينا الصلاة والزكاة والصوم و الحج، الشعائر الأربع الأساسية في الإسلام، وهذا الشعائر نجد أن تربط بين الدين والدنيا، بين الاجتماع والمنافع وذكر الله.

فالصلاة مثلا اجتماع وفي نفس الوقت صلة بالله سبحانه،

الزكاة تطهير للمال وللشخص ولكنها إنفاق على المجتمع،

الصوم في ذات الإنسان ولكنه كسر لشهواته وحد لأهوائه وأطماعه ورغباته وفتح للأفاق الرحبة والمشاعر الإنسانية في قلبه،

والحج اجتمعت فيه العبادات كلها ذكر الله والصلاة ما عدا الصوم إلا لمن اضطر إليه كمن كان عليه فدية ولم يجد، فيه هذه العبادات جمع بين العبادة المالية والبدنية والقلبية، المهم أن هذه الشعائر انتظمت كلها لكي تحقق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فانتظمها الإيمان وجعل لها نظاما تمحورت حوله الذي هو ذكر الله.

فما شرعت هذه العبادات إلا لكي يذكر الله فلا ينسى، ومن ذكره إفاضة الخير على عباده لأن كما ورد (**الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**)، فالخلق يعولهم الله بنعمته وبفضله وكرمه، ومن كان مسارعا إلى نفع الخلق كان محبوبا إلى الله عز وجل، فهذا هو إذن نظام العبادة، هذه الشعائر وكل شعيرة منها يتفرع عليها شعائر نافلة.

فمثلاً: الصلاة: الركن الثاني في الإسلام يتفرع عليها: صلوات النوافل كالسنن الرواتب وسنة الضحى وقيام الليل وما شاء الإنسان من التنفل بالصلوات في غير أوقات النهي ونحو ذلك .

الزكاة : يتفرع عليها الصدقة بشتى أنواعها .

والصيام: يتفرع عليه صيام التطوع بأنواعه كصيام الست وصيام أيام البيض وصيام عشر ذي الحجة ومن محرم العاشر ويوما قبله أويوما بعده و صيام التطوع أيا كان وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم (**أفضل الصيام صيام داود صيام يوم وإفطار يوم**) وغير ذلك من أنواع الصيام التي تتفرع على صيام الركن.

ثم **الحج** : الواجب وما يتفرع عليه:من حج تطوعي ومن عمرة، فإذن كل شعيرة واجبة تتفرع عليها شعائر أخرى، وكل شعيرة إذا نظرنا فيها هي عبارة عن نظام متكامل، مثلا الصوم يبدأ من طلوع الفجر إلى الغروب لابد أن تنتظمه أخلاقيات خاصة، إضافة إلى ما ينبغي أن يلتزم به الإنسان دائما ولكن يؤكد عليها في الصيام لأنه إن لم يفعلها كان لا قيمة للصيام فقد قيمته وهدرها بالإضافة إلى الإثم الذي يترتب عليه، الحج نظام والزكاة نظام وهكذا ولكنها أيضا تنتظم في نظام العبادة أنها كلها في نظام العبادة العملية لله سبحانه.

❖ **ثالثا: النظام الأسري**: الأسرة هي أساس المجتمع، كل مجتمع يتكون من أسر، سواء كانت الأسرة الصغيرة المفردة التي

تتكون من الزوج وزوجته وأولادهما، أو الأسر الكبيرة التي تتكون مثلا من الجد وأولاده وأحفاده ونحو ذلك مما كان معهودا في المجتمعات البسيطة كالأرياف ونحوها، عادة نجد أن الأسرة كما يسميها علماء الاجتماع الأسرة الممتدة أو الأسرة النووية أو المفردة، أيا كان فهي أساس المجتمع، ولذلك كان لها نظام ينظمها في بنائها، كيف تبنى ومم تبنى الأسرة؟ وما الحقوق والواجبات فيها لكل طرف من أطرافها؟ كيف ينبغي أن تسير العلاقات في داخلها وخارجها؟ ما الواجبات والحقوق التي لكل فرد من أفرادها على الآخر؟ كيف ينبغي أن تتم العشرة الحسنة فيما بينهم؟ كيف ينبغي أن يكون البر من قبل الأبناء للآباء؟ وكيف تكون الرحمة من قبل الآباء للأبناء؟ حينما نقول الآباء تغليبا ولكن المقصود الوالدين، فهنا إذن الأسرة جاءت التشريعات والتوجيهات لكي توجهها بنظام متكامل، من توجيهات تتعلق ببنائها وعلاقاتها داخلا وخارجا، توجيهات تتعلق بطريقتها في التصرفات، تتعلق بتعاونها، إلى آخره، أيضا بتفكيكها ونهايتها، ليس فقط بالبناء وإنما حتى بالتفكيك يأتي بنظام، شرع الله سبحانه له نظاما إذ أن الأسرة في نزاعها أولا نظام، كيف يرفع النزاع إذا حدث، ثم إذا استحكم النزاع ولم يكن بد من نقض البناء كيف ينقض، فشرع الإسلام تشريعات متنوعة للأسرة وأداء وتصرفات، سواء من البداية إلى النهاية.

قد يكون شيئا من تفكك الأسرة جاء مثلا من وفاة عائلها، فهنا أيضا يوجد نظام التوارث كيف سيكون هذا التوارث؟ وكيف سيكون التراضي فيه؟ نظام إفاضة الأسرة ما لديها من خير على الآخرين، مثلا إفاضة رب الأسرة إذا أراد أن يفيض مما أعطاه الله على الآخرين له أن يفيض فأعطاه الإسلام حظا أو جزءًا من ماله له أن يتصرف فيه دون ورثته مثلا، كالوصايا والوقف ونحو ذلك، هكذا إذن جاءت الصلة منظمة في داخل الأسرة المفردة والممتدة مما سمي بصلة الرحم أو علاقات ذوي الأرحام، وهذه من القيم الجميلة التي نجدها في الأديان بعامة وفي الدين الإسلامي بخاصة، وللأسف بدأت علاقات الأرحام تضعف مع المدنية الحديثة، لأنها جاءت بالتعويض عن جانب منها، فمما كان يشد الأرحام بعضهم إلى بعض التآزر والتعاون على شؤون الحياة، وقد عزز الإسلام هذا في ذوي الأرحام فربطهم ببعض فقال { أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ} فهناك رابطة الإيمان ولكن رابطة القربى معتبرة في الشرع ولكن القربى بالحق وليس بالظلم والهوى والتجاوز على حقوق الآخرين، فهي مراعاة، والإنسان الذي ينفق في رحمه أولى من أن ينفقه في الأبعدين بشرط أن يكون الرحم مستحقا، ولذلك لما نزلت الآية { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ }

جاء أبو طلحة إلى النبي فقال : **يا رسول الله إن بيرحاء هي من أحب مالي وقد جعلتها لك يا رسول الله تجعلها حيث تشاء،** هذا من تسابق الصحابة في محبة الله وفي نيل مرضاته فقال (بخ بخ، مال رابح اجعلها في الأقربين)، فتوجيه النبي أن يجعلها في الأقربين فيه حكمة عظيمة، لأن الأقربين لو لم ينالوا من خير قريبهم لجاء في أنفسهم، كيف ينال البعيد ولم ينل القريب، لا سيما إن كان محتاجا، فهو سد خلة هذا القريب وحاجته وفي نفس الوقت دفع ما بنفسه مما قد يأتي من ضيق أو من أحقاد على الآخرين الذين نالوا هذا الحق الذي هو أولى في نظره به، فالقريب يرى أنه أولى بقريبه، فالشاهد أن من ضمن ما نظمه الإسلام علاقة القربى التي تتسع بالأرحام لتشمل كل أرحام الإنسان.

❖ رابعا: النظام الخلقي

نأتي عليه بسرعة قبل نهاية الحلقة، هو كل إنسان لديه خلق سواء طيب أو سيء فالخلق الجانب الباطن من الإنسان، النبي لما سألوه، من أكرم الناس؟ قال: (ابن الأكرمين أو الكريم ابن الكريم) يقصد يوسف بن يعقوب عليه السلام قالوا: ليس عن هذا نسألك، ثم ما زالوا به فلما أدرك مرادهم من السؤال أجابهم، وربما يكون النبي أراد نقلهم من معنى لمعنى لأن كل

سؤال لابد أن تحدد مرادك منه حتى أجيبك، كأنه يعلمهم إنهم حينما يريدون أن يسألوا أن يحددوا مرادهم بدقة وهذا من الأشياء المفيدة للاجتماع والإنسان، أنك إذا أردت أن تسأل حدد مرادك حتى يجيبك من تسأله ولا تختلط الأفهام، فكثير من الاختلاط و الحوارات تتعقد بسبب عدم وضوح المرادات، فكلما كان المراد واضحا كلما كانت الإجابة أسرع، فلذلك لما أوضحوا مرادهم وكأن النبي ينقلهم من حال إلى حال حتى يعرفوا كيف يدققوا في طرح السؤال ويفصحوا عن المراد قال: (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) لابد أن يرتبط مع خيار المعدن فقهاً حتى يكون الإنسان فائقا، إذن الإسلام جاء بنظام لهذه المعادن التي عند الإنسان أو المعدن الإنساني.

الحلقة (٤)

أما بعد فقد سبق لنا الحديث في حلقة سابقة عن ثلاثة أنواع من أنواع النظم الإسلامية، وأشرت في نهايتها إلى النظام الرابع وهو النظام الخلقي، هنا سأعود للحديث فيه بشيء من التفصيل.

❖ رابعا: النظام الخلقي..

نريد به النظام الذي يعنى بالأحكام المتعلقة بالفضائل (المكارم) الأخلاقية، والأحكام التي تدعو إلى الحق والخير والجمال، أو لغة الشرع والإحسان، آخرون يقولون الحق والخير والجمال.

و يمكن أن نعبر عنه **بالحق والخير والجمال والإحسان**، وإن كان الإحسان الحقيقة داخل في الجمال بمفهومه العام، فليس الجمال هو الجمال الحسي، وإنما الجمال:

جمال حسي ومعنوي وفوق حسي أي غيبي، ولذلك لما جاء الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ذكر النبي الكبْر وحذر منه، قال الرجل: يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا، الصحابي تبادر إلى ذهنه أن الجمال مذموم وأن الجمال من الكبر، وأن الحس والمظهر من الكبر، فهذا فهم ليس صحيحا، لذلك رده النبي إلى الأصل فقال (إن الله جميل يحب الجمال)

وإن الجمال الإلهي هو الأصل (الجمال الغيبي)، لذلك ظهرت آثاره على الخَلق فكان الخَلق جميلا في تناسقه و ترابطه و نظامه و مظاهره، كل ذلك يبين محبة الله للجمال، فإذن الجمال أساس، وكأنما الحسن والإحسان من الجمال، لذلك لما قال ثوبه حسنا ونعله حسنا أجاب النبي بالمعنى الأعم الشامل الذي هو الجمال فقال (إن الله جميل يحب الجمال)،

ولكن الإنسان قد يكون قاصرا فينظر إلى الجمال نظرة قاصرة حينما يعتقله في الحس، فلا يرى إلا الجمال الحسي والغير حسي لا يعتبر أن الجمال يدخل فيه، مع أن الجمال تحس به في اللفظ، في المشاعر، في حركة الإنسان، في أدائه، في منطقه، كلما كان هناك اتساق وتناغم كلما ظهر الجمال ..

فإذن النظام الخلقي ما يتصل بالحق والخير والجمال، والإحسان له وجه إلى الخير وله وجه إلى الجمال. فإذن تلك الأحكام التي تحدد قواعد السلوك الإنساني و الطرق التي توصل الإنسان إلى السعادة في دنياه وآخرته، والمبادئ الأساسية التي تتأسس عليها التصرفات الأخلاقية، كمبدأ المسؤولية ومبدأ الإلزام ومبدأ الجزاء ونحوها التي تعتبر مبادئ أساسية للنظام الخلقي أو ما يعبر عنه بالجانب النظري من الأخلاق لأن الأخلاق ترتكز على مبادئ و قيم أساسية، ثم تأتي هذه القيم الجزئية وتمثلها أو تعبر عنها .

والأخلاق في الإسلام منها ما هو موافق للفطرة ومنها ما هو مهذب للهوى ودافع له ومنها ما هو مرقٍ للروح ومصف لها

ومنها ما هو محقق للعدل وللمصالح .

❖ **خامسا: النظام المالي هو :**

الجانب الآخر أو النظام الآخر الذي جاء به الإسلام فانتظم أموره، ما يتصل بالجانب الاقتصادي، فتصرفات الإنسان المالية سواء مثلا بيعه وشرائه، تجارته وكفالته، ما يتصل بالنقود وأوعيتها، والمؤسسات المتصرفة فيها، وما كان يسمى في الحضارة الإسلامية بالخراج الذي هو نوع من الضرائب، والركاز وأحكام موارد الدولة ومصارفها مهما تجددت وتطورت، كل هذه الأمور الاقتصادية والمالية لها ما ينظمها .

وقد يقول قائل: الآن الاقتصاد علم قائم بذاته، نقول: نعم ينبغي أن لا يختلط على الناس ما سبقت الإشارة إليه في الحلقة الأولى وأكدناه في الحلقة الثانية، وهو:

التفريق بين ما مصدره التجربة وما مصدره التشريع :

فعلم الاقتصاد: جانب كبير منه مؤسس على التجربة البشرية وعلى السنن الحاكمة لحياة الناس وتصرفاتهم وأسواقهم،

مثلاً: من القوانين الفاعلة في النظام الاقتصادي أوالمراعاة عند أهل الاقتصاد **(قانون العرض والطلب)** هذا قانون اكتشفه الإنسان بتجربته، وعرف تأثيره في السوق، وما يترتب عليه، ولذلك دخل منه من دخل، فأعمل هذا القانون مثلا إعمالا ضارا بالناس، **فمثلا** احتكر السلع، وضيق ما ينزل منها في السوق حتى تعلو قيمته، وهكذا ..

فإذن هي تجربة لكن تتطلب أحكام تشريعية، فهنا مثلا الإسلام يحرم الاحتكار، فهنا تدخل أو توجيه لاستخدام قانون العرض والطلب، كيف تُفعّل القانون؟ ينبغي أن يكون تفعيلك له في مصلحة الناس لا للإضرار بالناس ولا للإضرار بمصلحتك، فأنت تنتفع والناس ينتفعون، في إطار العدالة ينبغي أن يشغل قانون العرض والطلب، لا في إطار التنافس، كما هو شأن الرأسمالية،

الرأسمالية مقتضاها مثلا أن يرمى بالبضائع في البحر من أجل أن لا ينزل سعر السوق، مع أن في البشر من يموت جوعا، فإذن هنا قانون العرض والطلب قانون تجريبي اكتشفه الإنسان ووظفه، لكن التحكم في القانون وتوجيه توظيفه إلى الشرع، حتى لا يستغل الناس ولا يظلم بعضهم بعضا، فهذا مثال على الجانب التنظيمي الذي يوجه نتائج علم الاقتصاد من الجانب الفني،

فإذن الجانب الفني موجه بالجانب التشريعي، وكان في الحضارة الإسلامية السوق موجها بالأحكام الفقهية، يصدر الفقهاء آراءهم وفتاواهم فيما يستجد للناس من أمور ومن أحوال اقتصادية، لكن في العصر الحديث جد شيء كبير جدا، ولذلك تطلب جهودا وما زالت الجهود التشريعية تتوالى لاستيعاب هذه المستجدات والتي جاءت ليست مع الاقتصاد وحده وإنما في مختلف أوجه الحياة، في الاعتقاد والاقتصاد وكل أنماط الحياة، فلابد أن يبين الدين كلمته فيها، **ما هو الصواب وما هو الخطأ**، ما ينبغي أن يكون وما ينبغي أن يجتنب..

فليس معنى أن التجربة وصلت إلى شيء أنها تنفذ وتوظف كما يحلو للإنسان ؟؟ لا.. فلا توظفوا القانون في إطار الهوى، بل في إطار الحق، وهنا هذا دور التشريع ودور الدين لتوظيف السنن والقوانين ..

في الغرب قالوا ينبغي أن نكتشف القانون فنستفيد منه في إعمال الظواهرِ تحت قانونها، والاستفادة منها في مختلف أوجه الحياة، قالوا هذا الكلام، هذا كلام جيد أننا نستفيد من القانون في تطوير حياتنا وفي استثمار هذا الكون، هذا لا غبار عليه على الإطلاق:

١أن نعمل بالتجربة حتى نكتشف القانون

٢ أن نوظف القانون لصالحنا تحت القانون نفسه لا نوظفه في أطر أخرى خاطئة وإنما بمنهجية صارمة، هذا صحيح، لكن تأتي النقطة الثالثة هل في إطار الفردية المنطلقة؟ أم في إطار القيم العادلة؟

٣الدين يعطي توظيف هذا القانون في إطار القيم العادلة، وهنا دور الدين ودور أنظمته التي توجه الحياة في كل جانب من جوانبها.

سادساً:النظام السياسي:

أيضا يجب هنا أن نفرق بين ما مرده إلى التجربة في النظام السياسي وما مرده إلى التشريع، الناس يجربون لأن في السياسة جانب فني تجريبي يخضع لتجارب الإنسان وتطورها، ولذلك ابتدأت تجربة الناس بسيطة وما زالت تتطور في تدبير أمورهم من الحياة من الجانب السياسي، وكلما استجدت لهم معارف وتجارب تطورت، وكلما اكتشفوا قوانين السلوك الإنساني وقوانين العلاقة بين أعضاء المجتمع وطبقاته وفئاته كلما كانوا أكثر قدرة على إحكام السيطرة والتوجيه،

فإذن التجربة مفيدة للنظام السياسي، ولكن ما قلناه في الجانب الاقتصادي نقوله في النظام السياسي ..

النظام السياسي له وجه إلى الجانب التشريعي وله وجه إلى الجانب الفني، وإلى قوانين الله عز وجل في الآفاق والأنفس، فما كان إلى هذه الجوانب، قوانين الله في الأنفس والكون، فمصدره هنا، وما كان إلى التشريع وتوجيه التجربة، فمصدره شرع الله عز وجل ..

فقد جاء الشرع معززا لهذا، فالناس لابد أن يكون لهم نظام يحكم حياتهم كما سبقت الإشارة بأنه لا يمكن أن يوجد مجتمع بدون نظام إطلاقا لابد من النظام الحاكم، فإذا كان هذا أمر أساسي لابد من نظام حاكم فلابد من بيان أطراف هذا النظام ماله من حقوق وما يترتب عليه من واجبات؟ ولماذا قام؟ وبأي وظيفة يقوم؟ وكيف يقوم؟ وهكذا ..

حيثما شرّحت أي نظام سياسي في العالم وجدت أن هناك جوانب أساسية في النظام لابد أن تتوفر في كل نظام، هذه الجوانب الأساسية نجد أنها موجهة بالدين، فإذن هناك جانب كوني، فوجود حاكم ومحكوم يقتضي علاقات، فما من حاكم ومحكوم إلا بينهما علاقات، كيف تنظم هذه العلاقات؟

هذا جانب تشريعي مثلا، ما من مجتمع إلا ويولى عليه حاكما، كيف يتولى هذا الحاكم؟ مثلا ما صلاحيات هذا الحاكم؟ كيف يدير الجانب التشريعي، التنفيذي، القضائي، لأنه هو مدير لهذه الأمور، وكيف ينظم العلاقات بحيث لا تعتدي سلطة على سلطة، ويكون لكل استقلاليته لا تتدخل الأمور والصلاحيات فيحدث التناقض والتصارع في الحياة الاجتماعية ..

إذن كل هذه نجد أنها منظمة بحسب تجربة الإنسان، لابد أن تكون منظمة لكن في إطار تنظيم الشرع، كما أنه نظم الاقتصاد والمال والاكتساب ونحوه نظمه في إطار القيم العادلة، كذلك نظم السياسة في إطار القيم العادلة، وفي إطار تحقيق مصالح الكل..

ليس العدل هو التساوي بين الناس، بل هذا منطق خاطئ، لذلك لما قسم النبي المال في معركة حنين، قسمه بطريقة معينة تستهدف ترسيخ الحق في النفوس، فإذن طريقة التوزيع كما أن لها ارتباط بمصالح الناس في الإسلام، لها ارتباط بترسيخ الحق في الأنفس، وتحقيق الوظيفة الأساسية، فكان هناك المؤلفة قلوبهم وكان هناك الأنصار والمهاجرين الذين رسخ الإيمان في قلوبهم، فأعطى المال للمؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار والمهاجرين شيئا من ذلك، فوجد الأنصار في أنفسهم، فخطب النبي فيهم خطبته المشهورة، وبين لهم أنهم شعار والناس دثار وأنه لولا الهجرة لكان امرأ من الأنصار، وقال: (أما ترضون أن

يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى مساكنكم؟) فتحركت مشاعر الإيمان فبكوا وغطوا وجوههم ولهم أنين بكاء، رضوا برسول الله قسمة لما كان في قلوبهم.

لما مثلا كانت حادثة بني النضير، كانت القسمة للفقراء ولم يعط الأغنياء منها شيئا، وعلل الله ذلك بقوله { كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ } فإذن هناك قيم حاكمة للأدوار وللتوزيع وللتصرفات،

النبي خرج عليه رجل ذات اليوم وقال له في نفس معركة حنين ونفس التوزيع :"هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، اعدل" تصور أن العدل هو القسمة بالسوية، وهذا مناف للعدل، لأن الناس تتفاوت جهودهم وقدراتهم ويتفاوت عطاؤهم وسدهم للمجتمع، لكن هناك حد معين لابد منه، وهو أن يكون الناس نالوا حقوقا تغنيهم ونحو ذلك، ثم يأتي بعد ذلك التفاوت بين الناس والتوزيع، إدارة السلطات ونحوها من القضايا الأخرى، كل هذه الأمور، الاستشارات والشورى ونحوها، التي نجدها في كل نظام في حياة البشر نجد أن الإسلام جاء بتشريعات وتوجيهات لضبطها وجعل الحياة جميلة وسعيدة ومتناغمة ومتسقة، وفتح المجال فيها للتنافس والإبداع وللتطور ونحو ذلك، وكل من وعى مقاصد الدين وعياً حقيقياً لرأى هذا الشيء كأنه رأي العين، رأى كيف أن النظام يحقق هذه الأشياء ويراعي طبيعة البشر وصراعاتهم وتنافسهم وحاجاتهم بإشباع تام، هذا بالنسبة إذن إلمامة بالنظام السياسي.

❖ **سابعاً: نظام العلاقات الدولية:**

ويعنى به النظام بين وحدات المجتمع الدولي .

المجتمع الدولي يتكون من دول كل دولة مجتمع معين

كل دولة لها نظامها،

ما كيفية العلاقات بين هذه الدول؟ كيف ينبغي أن تحكم سلماً وحرباً؟

كيف تتبادل المنافع والمصالح؟ كيف أسس هذا على الجانب الإنساني؟ لماذا؟ لأن الناس ليسوا مسلمين بالإسلام، وليسوا مسلمين لدولة الإسلام، فلابد أن تكون المنافع هنا أساسا حاضرا والتعارف أساساً حاضراً،

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ } ولكن الدين يوجهنا هنا على أن لهذه العلاقات وجه إيماني ووجه إنساني، فالجانب الاجتماعي وجه إنساني، وجانب العلاقة مثلا علاقة الولاء و التناصر وكذا علاقة إيمانية،

فهناك علاقة ولاء وتناصر وهناك علاقة تعاون.

فعلاقة التعاون مؤسسة على الإنسانية: التعاون على البر والخير والتقوى، فأيما طرح يؤدي إلى مصلحة البشرية هو مجال للتلاقي، إذن الإسلام أتاح فرصة فيما يتصل بما له وجه إلى الجانب الإنساني يقام عليه، وما له وجه إلى الجانب الديني العقدي يقام عليه فالإسلام لا يستهدف الحرب إنما جاءت كضرورة إنسانية لوجود عنصر التصارع والتنافس وعدم التسليم للحق، {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ }هذا جانب عدم التسليم للحق، والجانب الآخر الاعتداء بغير الحق الاعتداء على الآخرين وأخذ ما في أيديهم وظلمهم، فلذلك جاء منطق الدفاع عن النفس، والتحالف على الخير لرد الظالم ونحو ذلك .

وهذه الأمور وجهها إنساني ولكن الشرع يقرها وهي مصالح يقرها الشرع ويأمر بها ويحبها،

ولذلك قال النبي (لقد دعيت إلى حِلف في بيت عبد الله بن جدعان ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت) لأنه حِلف كان

لردع الظالم والانتصاف للمظلوم والعدل محبوب لله سبحانه كما في الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)

وقال تعالى {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى }

{ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ}

الحلقة (٥)

سنتناول في هذه الحلقة وما تلاها بعض الجوانب الأخرى ذات الصلة بالنظم، حيث سأتحدث عن أهمية النظام في الكون والحياة وعن حاجة البشرية إلى النظام، وقصور العقل البشري عن تشريع النظم كاملة، وكمال الشريعة الإسلامية وشمولها لجوانب الحياة.

❖ أولا: بالحديث عن أهمية النظام الكوني والحياتي

النظام أمر أساس لا تقوم الحياة بدونه يشهد بذلك الواقع، والنظام في الكون أمر مسلم به، حتى قال أحد أعتى ملاحدة هذا العصر: إن دليل النظام يحيرني، ويقول أنه ما من دليل على وجود الله إلا ويستطيع الإجابة عليه لكن هذا الدليل يقف سدا مانعا وحاجزا لا يستطيع أن يقول فيه شيئا، فالواقع شاهد بهذا النظام ولا يقول بعدمه إلا مغالط، وقد جاء تأكيد النظام في القرآن الكريم من حيث نشأة الكون وبنائه ومن حيث التنوع والاتساق، ومن حيث الحركة والتغير، وكل ذلك يتم بنظام، ومن حيث التناسق أيضا بين الجانب الكوني أو وضع الكون ورسالة الإنسان كلها شاهدة بوحدانيته وفردانيته وإحاطته وعدالته.

▪ حاجة البشرية إلى النظام

وذلك راجع إلى طبيعة الإنسان وخلقته وما جبل عليه، فهذه الجبلة تقتضي حاجات، منها حاجات نفسية، ومنها حاجات مادية اجتماعية، ومنها حاجات أمنية.

←فأما الحاجة النفسية فهي :

ما أشار إليه ابن خلدون حينما قال: إن الإنسان قد فُطر على الأنس بالعشير، فالإنسان لا يعيش وحده، وإنما يعيش في مجتمع يأنس إليه، وبداية المجتمع الأسرة، وقد أشار الله في كتابه إلى تلك الحاجة النفسية عندما قال عن خلق آدم عليه السلام: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} وعلل ذلك سبحانه وتعالى {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}

وأشار أيضا إلى الحياة الزوجية بقوله {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ} وجعل بينهما مودة ورحمة، فهنا إذن الأُنس حاجة نفسية لابد للإنسان منه، ولذلك مما يؤدب به الإنسان أحيانا السجن الانفرادي لأنه مؤلم للنفس بانفرادها عن الاجتماع .

ومن آثار هذه الحاجة النفسية : الحاجة إلى التساكن بمعنى السكنى في مجتمع وعدم الانفراد في السكنى، هذا الجانب الذي هو الحاجة إلى الاجتماع يلي جوانب أخرى، الحاجة إلى الأنس يحتم على الإنسان العيش في مجتمع، ثم إن حاجات الإنسان المادية لا يمكن أن يقوم بها وحده، وإنما الفرد محتاج فيها إلى التعاون، وقد أدرك ذلك أيضا ابن خلدون وأشار إليه حينما قال: إن الإنسان في غذائه يحتاج إلى التعاون، ولا يمكن أن يحصل على حاجاته من الغذاء واللباس ونحو ذلك إلا بالتعاون، ومثل على ذلك بالطعام الذي تم طهيه وقال إنه يحتاج إلى الكثير من الأواني والصناعات والزراعة والأدوات التي تستعمل في

الزراعة حتى يصل إلى مرحلة الأكل، ثم أيضا مثل قال: لو قلنا إنه سيأكله حبا، فحتى ذلك يحتاج إلى توافر أيادي في الحرث والزرع والسقي والحصاد واستخراج الحب بعد حصاده، فكل هذه مراحل تحتاج إلى أيدي، فإذن الحاجة المادية توجب الحاجة إلى النظام.

◄ **الدافع الأمني:**

فالإنسان لديه النزعة العدوانية،

والبغي على ما في يد غيره،

قال صلى الله عليه وسلم: (لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال دماء رجال وأموالهم) ..

هذه الحاجة الأمنية توجب وجود من يدفع شر بعضهم عن بعض، ولا يكون ذلك إلا بنظام ..

فالحاجة الأولى (حاجة الأُنس) توجد أو تحتاج إلى نظام للعلاقات الأسرية، ونظام للعلاقات الاجتماعية ونظام للتساكن والمواصلات،

والحاجة المادية تحتاج إلى نظام للتجارة والاقتصاد بعامة، ونظام للزراعة ونظام للصناعة ونحو ذلك من الأمور التي يعانيها الإنسان لكي يحصل على حاجاته المادية، فكل جانب منها يحتاج إلى نظام

وكذلك الناحية الأمنية تحتاج إلى نظام قضائي ودفاعي وإلى نظام ضبط لأمن الناس فيما بينهم وفيما يأتي من خارجهم، وتلك الأنظمة المتعددة تحتاج إلى وجود نظام شامل من حيث التشريع ومن حيث القضاء والتنفيذ، فإنه لابد من تشريع أنظمة ثم لا بد من القضاء وفق هذه الأنظمة، ثم لا بد من تنفيذ القضاء لتحصيل الغاية النهائية من وجود هذه الأنظمة لكي تتم الحياة بسعادة.

إذا كان الأمر كذلك والبشرية لابد لها من نظام ولا يمكن أن تعيش فوضى، فمن الذي يُسند إليه النظام؟ هل العقل كاف في وضع نظام كامل شامل؟ أم أنه قاصر عن ذلك؟

العقل وقصوره البشري عن تشريع النظم الكاملة:

لا يمكن أن يشكك أحد في أهمية العقل ومكانته، وقد نبه الله عز وجل على أهمية التعقل والتفكر والنظر والسير والتدبر ونحو ذلك مما ورد في الكتاب العظيم، ومما جاء في سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام في الحث على ذلك الجانب، لدوره الذي لا يُنكر في استقامة المجتمع، وصلاح حال الإنسان، فالعقل وسيط في الإيمان، ووسيط في التكاليف الشرعية، ووسيط في الاجتهاد واستثمار الحكم من النصوص، ووسيط في القضاء وفض المنازعات، ووسيط في استثمار الكون، فهو وسيط لابد منه ولا يمكن أن يُستفاد من الوحي أو الكون إلا إذا كان العقل موجودا، فإذا زال العقل زالت الاستفادة معه، ولكنه في ذاته لا يمكن أن يؤدي إلى وضع التشريع الكامل .

◄ لماذا لا ينفرد العقل بوضع التشريع؟

في الإنسان خصلتان في جبلته، أشار إليهما الله عز وجل في قوله سبحانه {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}

الجهل: الذي أتاه من محدوديته، سواء محدوديته بالزمان، فمن المعلوم أن **الزمان** يأتي بالتغيرات إثر التغيرات، ولذلك قالوا: يجدّ للناس من أحكام بقدر ما أحدثوا من قضايا، فالتغيرات مستمرة ولا تقف عند حد، ولكل زمان حالاته وتحولاته.

الجانب الآخر الذي يتأتى للعقل الجهل منه هو أيضا اختلاف **المكان والبيئات والثقافات**، ولا يمكن للعقل أن يحيط بها

إحاطة تامة،

فلكل مجتمع ثقافته، ولكل مكان وضعه الذي يختلف عن المكان الآخر، ولذلك في الجانب الاجتهادي يختلف الاجتهاد ويتأثر بالمكان كما يتأثر بالزمان.

أيضا من جوانب الجهل التي تقصر بالعقل عن وضع نظم كاملة،

الجهل بالإنسان، قد يستغرب البعض ويقول كيف ونحن في عصر ثورة المعلومات، في عصر اكتشاف خريطة الإنسان من ناحية الوراثة ونحو ذلك من الفتوحات العلمية المذهلة التي تمت في هذا العصر، نقول بالرغم من ذلك فلا يزال المجهول أكثر من المعلوم بالنسبة لحال الإنسان .

الجانب الآخر **الجانب الغيبي**: فمهما أحاط الإنسان بالجانب الظاهر أو بعالم الشهادة، فلن يستطيع الإحاطة بعالم الغيب، وقد يقول قائل: وما دخل الغيب بالشهادة؟ وهاهم الآخرون سنوا القوانين دون مراعاة لهذا الجانب، نقول إن الإنسان جذره في الغيب، والكون جذره في الغيب، لذلك لابد من معرفة ما يتم به صياغة النظم من هذا الجانب، فإذن هناك جوانب مهمة جدا تجعل العقل قاصرا عن وضع النظم الكاملة، فقد يضع نظاما ولكن يكون عليه من الثغرات ما عليه، هذا هو الجانب الأول الذي هو جانب الجهل.

الجانب الآخر من جبلة الإنسان هو: جانب البغي (الظلم) ويظهر في أمور عديدة: منها تقديم المنفعة الذاتية، سواء لذات الفرد أو لفئة أو لطبقة أو لمجتمع أو لحضارة، فنجد أن الإنسان يدور في الغالب مع مصلحته، سواء مصلحته الفردية أو مصلحته الاجتماعية، مع إن تلك المصلحة خاصة، لا يمكن أن تشمل الإنسانية.

الوجه الآخر هو: وجه التظالم من الطمع وحيازة مال الآخرين بقدر ما أوتي من قوة، ويظهر هذا في التغالب الفردي، وتغالب الفئات والطبقات، وفي تغالب المجتمعات، وفي تغالب الحضارات ..

فالبغي حاضر في الحياة الإنسانية، ما لم تخضع لأمر الله عز وجل ولحكمه، وهذا ما لا يكون على الكمال، وقد أشار الله عز وجل وذكر {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ }، {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ}

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ }

فالاختلاف موجود، والتظالم موجود ما وُجد اختلاف المجتمعات أو عدم خضوعها لله سبحانه خضوعا كاملا، هذا القصور يستدعي الكمال، بمعنى لابد أن يكون هناك مصدر يحقق الكمال، وهو موجود في الوحي الذي يسمح بالتكامل أو يوجه إلى التكامل بين الشرع والعقل والتجربة.

وقد قلت إن الجانب الفني: مبناه على التجربة والعقل ، والجانب الشرعي منه: ما هو قطعي (لا يحتاج إلى الاجتهاد، وهذا لابد منه)

ومنه ما هو ظني (يحتاج إلى اجتهاد ويتوسط العقل في الوصول إلى الحكم الشرعي) بناء على ذلك:

فإن النظم لابد فيها من التكامل بين الشرع و العقل والتجربة..

وإذا قلنا بذلك وأوضحناه قطعنا الطريق على من يريد أن يُقصي الشرع مستنداً إلى التجربة أو العقل وحده، وبينا عجز العقل بمفرده،وعجز التجربة بمفردها عن إتاحة النظام الكامل، وأنه ستظل هناك ثغرات، بل إن العقل وحده لا يحجز الهوى ولا يرفع الجهل، وكذلك العقل والتجربة يرفعان الجهل من جهة دون جهة، ولا يمكن رفعهما للجهل رفعا كاملا ..

في حين أن الوحي يفتح آفاقا رحبة لزوال الجهل المانع من وضع النظام بما جاء فيه من تشريعات، ومن قواعد تستوعب الحياة

البشرية كلها، وتحقق السعادة والأمن، بشرط العمل الجاد المؤسس على الإيمان، وعلى بذل الوسع في الوصول إلى أحكام الله عز وجل، وعلى التجرد وضبط النفس وأهوائها .

إذن الشرع كامل ولكن النقص يتأتى من جهة الإنسان الذي قد يُدخل الهوى في تحكيم الشرع أو قد يحول جهله و يقعد به عن تطبيق الشرع تطبيقا كاملا ومثاليا.

إذن نلحظ من هذا : أن هناك التقاء وافتراق بين ما يضعه العقل وبين ما جاء في الشرع، ومن هذا الباب ذُم الانفراد بالتشريع أو تجاهل الوحي، لأنه من هذا الوجه حيث دور الشرع هو إحلال للإنسان محل الله، وهنا لن يستطيع الإنسان أن يكون تشريعه كاملا،

❖ **ولذا يجب أن نفرق بين فلسفة القانون وبين القانون :**

ففلسفة القانون متمثلة في المبادئ والقيم والأساسات التي يقوم عليها، هذه الفلسفة ترى استقلال العقل بالتشريع، والقوانين ذاتها فقد تلتقي بالتشريعات من حيث أن القوانين مؤسسة أولا على السنن والعوائد الضابطة لحركة الإنسان والحياة والكون، وهذا متفق مع ما جاء في الشرع، ومن جهة أخرى هي تراعي المصالح..

ولكن يتطرق إليها الفساد من ناحية :

أصولها الفلسفية .. ومن ناحية دخول الأهواء فيها.

الحلقة (٦)

هنا نبين المصدر الذي يمكن أن يُستند إليه ولا تتطرق إليه هذه العوارض التي تقعد به عن سن النظام الكامل؟

إذن لكي يكون لدينا نظاما كاملا محققا للسعادة لابد من انتفاء العوارض الأصلية التي يحدث بسببها القصور وتتفرع عليها جوانبه، وهي التي ذكرتها في الحلقة الماضية، أعني الجهل والظلم،

فالذي يرفع الجهل :هو العلم المطلق الشامل، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }..

وبالعدل المطلق وهذا أيضا لله سبحانه { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ }، وفي الحديث القدسي (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي).

فمرد التشريع الكامل لله سبحانه وتعالى المحيط بكل شيء والعادل عدالة مطلقة، ويتأتى هذا في **الوحي** المنزل من الله سبحانه لهداية البشر، وما ينبغي للجنس الإنساني، وقواعد التعامل مع المخلوقات الأخرى، والتأسيس على الغاية من وجود الإنسان، كل تلك مرشحات **للوحي** لكي يكون **المصدر الكامل** الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بناء على ذلك يظهر شمول الشريعة وكمالها واستيفائها لجوانب الحياة كلها، وسنحاول هنا البحث عن الخصائص التي تُعطي التشريع الثقة الكاملة فيه.

← فما هي الجوانب التي يجب أن تتوفر في المصدر حتى يكون محل ثقة؟

أولها: صفة الكمال، فالذي يتطرق إليه النقص يُقدح في الثقة فيه بقدر ما يتطرق إليه من نقص، ولذلك مثلا قول الواحد ليس كقول الاثنين، وقول الاثنين ليس كقول الجماعة حيث الثقة فيه وهكذا، والرأي الواحد لا يأتي لنضج تعدد الآراء، وكذا في سائر الأمور كلها، وبالنسبة للشريعة الكمال فيها ناتج عن مُنَزِّلها سبحانه الكامل والذي شهد بكمالها ..

قال الله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} فأبان سبحانه وتعالى عن

كمال الدين وتمامه،

الكمال المطلق الذي لا يحتاج معه إلى تكميل وإنما يُرجع إليه دائما لفهم ما يستجد وما يعرض، وسيتبين هذا الكمال من خلال الحديث عن الصفات الأخرى التي توجب الثقة.

ثانيها: صفة العصمة، من كان معصوما عن الخطأ كان محل ثقة، ومن تطرق إليه الخطأ نقصت الثقة بحسب نقصه، بحسب تطرق الخطأ إليه، ولذلك تكون الثقة مثلا في العالِم غير الثقة فيمن لا يزال في مراحل طلب العلم..

والثقة في الشريعة جاءت من أنها معصومة، فالله عز وجل يقول {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} فالقرآن محفوظ بحفظ الله عز وجل لا يتطرق إليه النقص ولا يدخله التحريف ..

قد يقول قائل: قد يظهر التحريف عند من يستنبط من الشريعة، ونقول هذا في الناقص وليس في الكامل، فنحن نتحدث عن أن الشريعة كاملة وأن القرآن محفوظ، فإذا تطرق الخطأ إلى الأفهام فإن ذلك لا يقدح في الأصل الذي هو الكتاب العظيم، فالثقة فيه حاصلة، حاصلة بشهادة الله عز وجل وهذا هو الأصل، وبشهادة الواقع فهو محفوظ ومنقول بطريق التواتر الذي لا يتطرق إليه الشك، تواتر في النقل الشفهي وتواتر في النقل الكتابي، فمهما حاول المحاولون فلن يجدوا فيه نقصا أو خطأ، تنزيل من الله العليم بكل شيء الحكيم سبحانه.

ثالثها: صفة الإحاطة: ولذا إذا أخذناها في النِسب رأينا أن العالِم الذي يحيط بالعديد من مسائل العلم ليس كمن لديه بعض الإطلاع، فمن كان واسع الإطلاع في فقه المذاهب كلها ليس كواسع الإطلاع في فقه مذهب بعينه، ومن كان واسع الإطلاع في مذهب بعينه ليس كمن لديه علم بجانب من جوانب تراث هذا المذهب وقواعده، وكلما كانت الإحاطة أوسع كانت الثقة أكبر، والثقة والإحاطة في الشريعة جاءت من إحاطة علم الله عز وجل الذي قال عن الكتاب الكريم {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} وقال سبحانه عن الكتاب { تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ }.

رابعها: صفة الخلود: إذا كان الشيء خالدا ليس كالشيء المؤقت، وقد تميزت الشريعة الإسلامية بأنها الشريعة الخاتمة لكل الشرائع السابقة، الله عز وجل يقول عن نبيه الكريم{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}، والقرآن الكريم مصدق لما قبله ومهيمن عليه، الدين الخاتم في الشريعة الخاتمة، فله الخلود الكامل.

ويظهر هذا الخلود من خلال ما يحتويه مما يحقق له الاستمرارية والتجدد، من حيث احتوائه على القطعي والظني، القطعي الثابت والظني الذي يسمح بالاجتهاد والاستجابة للمستجد، وبناء الشريعة وبناء الأحكام على تحصيل المقاصد الآجلة والعاجلة، وتعليل الأحكام، واليسر ورفع الحرج ودفع الضرر والبناء على سنن الخلق والأمر.

خامسها: صفة الصدق: وكلما كان هناك تحل بالصدق كلما ازدادت الثقة، وإذا تطرق ضده قلّت الثقة فيه، فلو أخذنا على سبيل المثال الخبر، فالخبر إذا كان صادقا كانت الثقة فيه مطلقة،

وإذا قل الصدق أو تطرق احتمال عدم الصحة أو عدم الصدق فيه زادت نسبة ضعف مصداقيته، والشريعة التي مصدرها هذا الكتاب العظيم الذي جاء بالصدق ما قاله الله عن نبيه {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ}..

وقد تحدى الله عز وجل الناس وهذا مما يعزز مصداقية هذا القران:

١- بأن يأتوا بحديث مثله وأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وأن يأتوا بسورة من مثله، تدرّج بهم من الإتيان بالمماثل إلى الإتيان بجزء أو بثلث أو ببعض المماثل، أو بجزء يسير من المماثل، ومع هذا لم يستطع أحد على مدار التاريخ أن يأتي بشيء من مثله،

مما يعزز مصداقيته ويؤكدها، وأيضا مما يعزز الصدق:

٢- تطابقه مع الواقع، يعني تطابق الوحي مع الخلق،

فالخلق فعل الله ..

والوحي قول الله ..

ولا يمكن أن يخالف القول الفعل، لابد من التطابق بينهما، وقد لاحظ ذلك بعض من درس الكتب الدينية فمثلا موريس مكاي طبيب فرنسي أخضع الكتب المقدسة للدراسة ومعرفة تطابقها مع منطق العلم أي مع سنن الله سبحانه في الخلق، ووجد أن القرآن هو المطابق لذلك، وأسلم بناء على هذه المقارنة التي عملها في كتابه الذي تُرجم بعنوان الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، كما تُرجم بعنوان آخر: التوراة والإنجيل والعلم في ضوء العلم الحديث.

ولنا في ذلك شاهد أن الوقائع ما تزال تُظهر أن القرآن حق وكلما كشف مجهولا أدى ذلك إلى الاقتراب من منطق الوحي..

هذه إذن خمس صفات، إذا توفرت في مصدر من المصادر كان محل ثقة مطلقة ولا تتوافر مطلقة إلا في شرع الله عز وجل، أما في ما عدا ذلك فهي نسبية ومحدودة ومتفاوتة في وجودها بين مصدر ومصدر،

ومن هنا كان الوحي هو الأصل وهو المصدر الذي يصدر عنه الإنسان حسب توجيه الله عز وجل،

{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} فله الحكم سبحانه في الخلق وله الحكم في الأمر، {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

وأود هنا أن ألفت الانتباه إلى التفريق بين الشريعة المتضمنة في القرآن الكريم الصادرة عنه، وبين آراء واجتهادات العلماء.

فأما الشرع : فتنطبق عليه الأوصاف الخمسة التي ذكرت..

وأما اجتهادات العلماء : فهي تتضمن الصواب والخطأ، كما قال عليه الصلاة والسلام (**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد**) وعلى الإنسان في الاجتهاد أن يبذل وسعه وطاقته والالتزام بالضوابط الأساسية التي وُضعت للاجتهاد، إذا توفرت في الشخص الصفات التي تحقق له الاجتهاد المطلق كان مجتهدا مطلقا، وإذا كان اجتهاد نسبي فاجتهاد على قدره، مذهبي أو في مسألة من المسائل أو نحوها، ولكن يظل هناك فرق وهو الفرق بين اجتهادات العلماء وبين الشريعة نفسها.

فإذا وُجد نقص ما أو خطأ ما فهو إلى الفكر البشري المجتهد، وليس إلى شرع الله، فشرع الله براء من النقص ومن الجهل ومن القصور، هذه صفة الإنسان، وقد اعترف بعض علماء القانون بما للشريعة من كمال، فجاء في مؤتمر لاهاي عام ١٩٣٧م الاعتراف بأن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر التشريع العام وأنها شريعة حية، وأنها قائمة بذاتها وليست مُستمدة من غيرها، وما شهد بهذه الأمور شهد بها أناس غير مسلمين، لما علموا في الشريعة من ثراء وحكمة وفضل واستجابة لوقائع الحياة، هكذا نلاحظ لماذا كان الوحي المصدر الأساس للنظم في الإسلام.

ولكن قد يقول قائل: أليس للجوانب الكونية دور في التشريع؟ نقول: إن العلماء قد حددوا مصادر ثابتة وقطعية وأساسية ومصادر للتشريع مُختلف فيها بين العلماء، هذه المصادر يظهر فيها دور الإنسان في التشريع وفي سن الأحكام، لا على سبيل الاستقلال ولكن على سبيل الاستعانة بهذه المصادر في استنباط الأحكام وتأصيلها، ومن هنا يتدخل العقل وتدخل التجربة و تدخل العوائد والأعراف.

الحلقة (٧)

انتهيت في الحلقة السابقة بالحديث عن شمول الشريعة وتكاملها واستيعابها لجوانب الحياة كلها وأيضا هناك تكامل بين العقل والوحي والتجربة،

لأن لدينا في الحياة جانبان: جانب فني وجانب تشريعي.

- **الجانب الفني**: مصدره التجربة ومنظمه العقل، **العقل وسيط بين التجربة والنتيجة أو القانون الذي يُصاغ بناء على التجارب،** وطريق التعرف على سنن الله في خلقه يتم بواسطة التجربة والعقل.

- **والجانب الآخر الجانب التشريعي** (الوحي): و طريق التعرف على أحكامه **بوسيطٍ هو العقل** الذي يسمع كلام الله فيعيه ويستنبط منه ويجتهد في الوصول إلى مرادات الله سبحانه وتعالى، فكان العقل وسيطاً في الجانب التشريعي ووسيطاً في الجانب الفني، وبهذا يرتفع التناقض عندنا فلا نقع في هذا الجانب الذي يُفرط في رفض الواقع وسننه ويتجاهلها، ولا في الذي يُفرط فينفي الشريعة ويرى أن الوحي أو الدين قاصر على العلاقة بين العبد وربه، فإذا كانت هذه المشكلة قد نشأت في مجتمعات أخرى ..

وعُرفت فيما بعد بالمنهج العلماني: الذي يرى أن الفصل في الدنيا وتسييرها مردُّه إلى العقل والتجربة، ولا دخل للدين فيه.

نشأ هذا المنهج في أوروبا وامتد امتداد الحضارة الغربية وهيمنتها، وهي تحاول فرض أنموذجها هذا على العالم أجمع..

وأما في الإسلام فلا تناقض بين العقل والتجربة والشرع، وإنما هو التكامل، فإن الشرع يبين سنن الدين، ويوجه العقل والتجربة لاكتشاف سنن الخلق بالإشارة إلى بعضها، حتى يُراعي الإنسان في اجتهاده وفي حركته ونظره الأمور كلها بتكامل وتوازن ..

ومن ثم ما يسمى بالنهج العلماني لا يمكن أن يصدق على وضع الإسلام، لأنه لا يتجاهل الدنيا كما قلت ولا يتجاهل السنن الكونية (سنن الخلق)..

سواء في مجال الطبيعة أو الكون، أو في مجال الإنسان، بل إن الوحي والقرآن يؤكد أن الكشوفات العلمية وأن الصيرورة في هذا الجانب ستؤدي إلى الشهادة بأن القرآن هو الحق، وذلك لأن نتائج الكشوفات والوصول إلى السنن في المجال الكوني والإنساني توافق سنن الله سبحانه وتعالى، وتشهد بأن القرآن هو الحق.. فإذن الخطأ جاء من هذا التطرف:

إما رفض الجانب الدنيوي ..

وإما الاكتفاء بالجانب الدنيوي،

فكلاهما نهج خاطئ وكأنهما في عُرف هؤلاء وهؤلاء جزيرتان منفصلتان لا تلتقيان، في حين أن النهج الصحيح الشرعي يُكامل بينهما ويصل بينهما، فمصدر التجارب هو الخلق، تجارب على الخلق تستهدف الوصول إلى سنن الفعل الإلهي، سنن الخلق، و الشرع يهدي الناس لسنن الدين، وسنن الدين متطابقة مع سنن الخلق، فلا يمكن أن يناقض قول الله عز وجل فعله، فإذا أخذنا بذلك خرجنا من أزمة هذا التطرف، ومن أزمة الميل مع جانب دون جانب، وعرفنا نقطة الضعف والجهل لدى كل من قبل بهذا ورفض ذاك..

ولكن ينبغي لفت الانتباه إلى أن المنهج الإسلامي مُفارقٌ المنهج العلماني من حيث أنه يرد الأمر كله لله سبحانه {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}،في حين أن النهج العلماني يرفض الاستناد إلى أمر الله سبحانه ويكتفي بالاستناد إلى الخلق..

وقد شبّه أحد المفكرين الأوروبيين الحضارة الغربية بطائر حلّق بجناح واحد ولم يحلّق بالجناحين معاً، الحق أنه لا طائر إلا بجناحين، ولا يمكن الاكتفاء بجناح واحد لتحقيق الكمال.

❖ التفصيل في بعض النظم في الإسلام

ننتقل إلى تفصيل بعض النظم في الإسلام، وسنبدأ بالحديث عن :

النظام الأخلاقي أو النظام الخُلُقي: إن الحديث عن كل نظام بمفرده لا يعني أن بين النظم فواصل، وإنما النظم في الإسلام بينها تواصل،فحينما ندرسها كأساس مفصل فذلك من أجل الفهم والتعرف عليها، أو على عناية الشريعة بهذه الجوانب على حدة، ولكن ذلك لا يعني الانفصال، لأن نظم الإسلام كلها تقوم على الاعتقاد واستهداف مرضاة الله سبحانه وتحقيق مصالح العباد الآجلة والعاجلة واعتبار العدل في هذه المصالح، أو بمعنى آخر هذه النظم تستهدف تحصيل المصالح ودفع المفاسد، هذا عن النظم بعامة ومن ضمنها نظام الأخلاق الذي يتداخل مع النظم الأخرى، حينما نتناول غيره من النظم سنرى أن للنظام الخُلُقي حضوراً في الأنظمة، لأن الشريعة في حقيقتها كلها أخلاق أو تخلّق وسلوك وسير إلى الله سبحانه سواء كان ذلك على المستوى الفردي أو على المستوى الاجتماعي.

١-النظام الخُلُقي:

تعريفه: النظام سبق التعريف به والخلقي نسبة إلى الخُلُق، والخلقي نسبة إلى الخلق ..

وقد عُرّف **الخُلُق في اللغة** بأنه الطبع والسجية والسيرة والهدي.

وعرف بأنه هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر ودون حاجة إلى الفكر.

وعرف بتعريف آخر مجموعة من الصفات والمعاني في النفس والتي تتحكم في الأفعال من حيث الحُسن والقُبح.

فأما بالنسبة للتعريف الأول فقد اقتصر على المعدن (**هيئة راسخة في النفس**) هذا المعدن الذي تصدر عنه أفعال الإنسان، **فمثلا**: من كان صفته الشجاعة تصدر عنه وتُلحظ عليه ، من كان صفته حب الخير ظهرت عليه المبادرة إليه، ومن كان صفته التعلق بالدنيا ظهرت هذه الصفات عليه، فالخلق جانب منه معدن الإنسان، قابلية موجودة لدى الإنسان، ولذلك تفاوت الناس في الأخلاق بالرغم من تقاربهم أحيانا، في الخلق نجد الفرق فيه بين الأب وابنه، بين الزوجة وزوجها، وبين الإخوة وبين الأخوات من أب وأم واحدة، لأن لكل فرد معدن، ولما سُئل عليه الصلاة والسلام: (أي الناس خير؟ قال -لما استوضحهم كما أشرت مرة ومرة عن سؤالهم ماذا يريدون ولما أوضحوا مرادهم وأفصحوا عنه- قال: (**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**) فالخيار في الإسلام مشروط، ليس بمجرد أن الإنسان خيار في الجاهلية، لأن خياره في الجاهلية بحسب معدنه، بحسب قابلية نفسه، وهذه القابلية تُحَد بالثقافة، بالمحيط الاجتماعي، وبالتالي قد يقلل من تأثيرها، قد يحول دون ظهورها، قد يحرفها عن مسارها، ولذلك قال المصطفى عليه السلام: (خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)

فالفقه الحقيقي ليس العلم الذي في الرأس ويحويه فكر الإنسان ويحفظه ويعيه، وإنما الفقه وعي القلب الدافع إلى العمل، الخوف من الله سبحانه وخشيته والإقبال عليه والإعراض عن ما سواه، فقه الدين وليس فقه الأحكام وحدها، فقه الدين كاملة، وهذا هو الفقه الذي يُشار إليه هنا لأنه المؤثر في السلوك، ففقه الأحكام بمفرده قد لا يؤثر في السلوك، كم من أناس يعلمون الحلال والحرام ولكنهم يخالفون ذلك، ولكن هناك من الناس من أنعم الله عليه بالإيمان والخشية ومراقبة الله سبحانه، هذا هو الفقه الحقيقي، قال: (**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**)، لأن المعدن الطيب إذا وجد المحيط الطيب أظهر النتيجة الطيبة، كالبذرة الصالحة الممتازة إذا وُضعت في الأرض الخصبة جاء منها الخير الكثير،

والبذرة الضعيفة حتى لو وُضعت في أرض خصبة لا يكون نتاجها كنتاج البذرة الجيدة الطيبة،

فإذن التعريف الأول :لاحظ معدن الإنسان الذي يتحكم في تصرفاته.

والتعريف الثاني : أضاف بُعد المعاني، والمعاني ليست مُكتسبة من النفس، فهي مجبولة على صفات، ولكن هذه المعاني مُكتسبة من خارج النفس، وقد يكون اكتسابها من الشرع، وقد يكون اكتسابها من المجتمع، وقد يكون من خلال قراءات الإنسان ودراسته وتعلمه، بحسب المصدر، المهم أنها خارجية، فإذا اكتسبت الصفة المستقرة في النفس بأن آمن بهذا الشيء وضرورة العمل به، وكانت هذه المعاني حاكما لسلوكه وتصرفه، أصبحت كالخلق له، لأنها تحكمت في باطنه.

الخلق صورة الإنسان الباطنية، والسلوك صورة الإنسان الظاهرية، هناك اتصال و انفكاك بين السلوك والأخلاق، فقد يكون الإنسان في باطنه شيء ويظهر عليه شيء مخالف لما في باطنه، وقد يكون ظاهره كباطنه، وقد يكون باطنه خير من ظاهره، فالمسألة تختلف، **مثلا** الذين نافقوا نفاقا اعتقاديا يظهر عليهم الإسلام والعمل الظاهر به وبشعائره، ولكنهم قد أبطنوا الكفر فخالف الباطن هنا الظاهر، والظاهر حسن ولكن باطنه مُرّ وسيء، و قد يكون كما قلت الباطن والظاهر يجتمعان على السلوك الحسن.

هذا بالنسبة لتعريف الخُلُق، إذن لما أضاف أنها التي تتحكم في الأفعال من حيث الحُسن والقُبح، عرفنا أنها معاني من خارج النفس، لأن أصل التحسين والتقبيح هو الشرع، والعقل قد يُحسّن ويقبح، ولكن **هذا التحسين والتقبيح لا يمكن أن يكون على سبيل الاستقلال، لأنه لا يمكن أن يصل إلى الحسن المطلق والقبح المطلق، إنما هو حسن نسبي وقبح نسبي**، وقد يُحسّن العقل شيئا في مجتمع ونجد العقل في مجتمع آخر يذمه، وهكذا يختلف التحسين والتقبيح النسبي الذي مرده سواء العقل أو التجربة ونحوه، تختلف بحسب المجتمعات وباختلاف التجارب والثقافات، فلذلك قد نرى تحسينا ولكنه كما قلت يكون تحسينا مذموما، كما نرى في بعض المجتمعات مثلا إباحة الخمور، وهي مما يُزيل العقل ويضره، فهذه الإباحة لها هي لو لم تكن حسنة لديهم لما أباحوها فنظروا إلى أمور بموجبها استحسنوها،

وفي الإسلام مثلا ذُم هذا الشيء ونبه الله عز وجل إلى أن ذمه له آت من مفاسده الكثيرة: {وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}،

{ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ }.

فإذن تحسين الشرع وتقبيحه هو الأصل، ولكن كما قلت قد تكون هناك مصادر وهذا ما سنشير إليه للتحسين والتقبيح غير الشرع ولكن يجب أن يُرد الأمر في ذلك إلى الله والرسول.

❖ مصادر الأخلاق أو معايير الأخلاق

ما المعايير التي تتحكم في الأخلاق؟ التي تبين حسنها من قبيحها ؟

هناك معايير في الإسلام يُقاس بها الحُسن والقُبح ..

❖ فالمعيار الأصلي الأساس المُطلق الحاكم على كل المعايير هو:

شرع الله عز وجل، هو الوحي، والعقل يهتدي بالوحي في اكتشاف الحسن والقبيح، كما أنه يهتدي بالتجربة في معرفة الحَسن والقبيح في نطاق المحسوس، فهكذا إذن سيكون هناك معايير مُطلقة أو معيار مطلق حاكم على كل المعايير في الإسلام، وهناك معايير نسبية مردها إما إلى العقل الذي يستنبط السنن الكونية ويعرف من خلالها الحسن والقبيح في التجارب البشري.

الحلقة (٨)

❖ معايير الأخلاق:

ما الموازين التي توزن بها الأخلاق فيعرف بها الحسن من السيئ، بحسب ما يؤمن به المجتمع؟

نجد أن هذه المعايير تختلف من مجتمعات إلى أخرى، بالنسبة للإسلام كما أشرت فيما مضى **المعيار المطلق** والأساس الذي تصدر عنه المعايير الأخرى هو **الوحي**، فالوحي هو الهادي وهو المبيّن للحسن والقبيح.

هناك أخلاق حُدِدت وبُينت ووضّح حسنها من سيئها، وهناك أمور تعرف بالنظر والاجتهاد في شرع الله سبحانه وتعالى، فيتوصل من خلال ذلك إلى معرفة الحسن والسيئ،

وهذه مجال الاختلاف فيها وارد، لذلك هناك ما هو مستقبح مثلا **بالطبع**، ومستحسن به، فالطبع قد ينفر من شيء وقد يقبله ولكن لا يترتب على هذا الشيء تحريم وتحليل.

ومثالنا في ذلك أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذات يوم قُدّم له طعام فيه ضب، فكفّ ولم يأكل منه فسأله خالد بن الوليد رضي الله عنه: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: (لا، ولكنه ليس بأرض قومي فأجد نفسي تعافه)، فهنا أحال المصطفى عليه الصلاة والسلام على الطبع، فبالتالي ما كان الطبع ينفر منه ويستقبحه، ليس معناه أنه حرام.

وهناك إذن كان النبي صلى الله عليه وسلم يبين لنا أن الجبلة تنفر من شيء وتقبل على شيء، وأن الناس في ذلك متفاوتون ..

ومن العوامل المؤثرة في هذا الجانب: الثقافة **ثقافة المجتمع**، ولذا نجد مجتمعات يأكلون أشياء مثلا هي ليست من المحرمات في الشرع، لكن النفوس قد تستقبحه وتنفر منه، وهناك مجتمعات أخرى تستحسنه، الطبع إذا محسّن ومقبّح، ولكن لا يترتب على تحسينه وتقبيحه أحكام، والعقل يستنبط من الشرع فيبيّن حسنا وقبيحا، ولكن يظل اجتهاد، وقد يختلف معه غيره بناء على أدلة وتعليل تثبت عند الآخر، ثم لدينا الفطرة مقياس للخير في المجال الخلقي وللشر، فالناس جميعا يحبون الصدق، قد لا يصدقون في ممارستهم وفي فعلهم، ولكنهم يحبون الصدق، ويكرهون أن يكذب إنسان عليهم، ويحبون أن يصدق الناس معهم، ولكنهم قد يكذبون وقد لا يمارسون الصدق، ولكنهم يحبون الصدق ويرون فيه قيمة عالية، فمهما شرّقت وغرّبت تجد الناس يجدون أن الصدق قيمة طيبة، وأن المحافظة على العهد مثلا قيمة طيبة، وأن الكذب قيمة مذمومة، وأن الغدر خلق مذموم، وهكذا وأن الجبن خلق مذموم، وأن الشجاعة خلق ممدوح، وهكذا.

فإذن هناك أمور مصدرها **الفطرة**، فطرة الناس تقبل على شيء وتنفر من شيء فكأنما كانت مقياس، وقد جاء الدين معززا لهذا الجانب ومراعيا لفطرة البشر.

فزكّى الأخلاقيات التي فيها منفعة للناس ومصلحة، وذم الأخلاق التي فيها مضرّة، وبيّن ما كان مطلقا في كل الحالات وما كان نسبيا، ولكنه في هذه النسبية يخرج عن الصفة الأساسية، فمثلا الصدق صفة مطلقة، لكن لو فكرت فيها لوجدت أن الصدق في بعض المواطن ليس نافعا بل مضر، ولذا سمّي باسم غير اسمه عبّر عن هذه الصفة، فمثلا لو قلنا أن إنسانا عسكريا لديه العلم بالمواقع الحربية في مجتمعه أو في بلده، ثم صدق العدو القول عن هذه المواقع، يعني أعطاهم المعلومات الحقيقية الصادقة، لا يسمى فعله هذا صدقا، وإنما يسمى خيانة، فإذن الصدق إذا نظرنا إليه من هذه الجهة تدخله النسبية، وبالتالي يعطى اسما آخر يخرجه عن الصدق، حتى لا يكون الصدق مذموما، يعطى اسما آخر هو الخيانة.

وهكذا في الأخلاق التي مظهرها الإطلاق، هي إذا فكّرنا فيها من حيث حقيقتها وجوهرها وجدنا أنها قد تكون نسبية، وبالتالي يُخرج هذا الذي يجعلها نسبية حتى لا تكون بهذا الشكل حتى تكون مطلقة، يعطى الجانب السلبي اسما سلبيا،

فالصدق مع العدو وإعطائه معلومات عن المجتمع فيه خيانة ليست صدقا، لكن الصدق مع العدو في العهد أمر مطلوب، ولذلك سمّي باسم آخر أيضا سمّي الوفاء بالعهد.

إذن هذه المعايير أو المقاييس في المجتمع الإسلامي **مردّها وأساسها الوحي**، وكما قلت هناك **مقاييس أخرى تتفرع** عليه:

١- **كالعقل الذي يهتدي بالوحي** في استنباط الحسن والقبيح.

٢- و **كالفطرة** التي تميل إلى الحسن وتنفر من القبيح.

٣- و **كالعوائد الاجتماعية الطيبة الصالحة** .

ولذلك الإسلام حينما جاء لم ينفِ جميع عوائد العرب وإنما ما كان منها طيّبا أبقاه، وما كان منها مذموما حرّمه وألغاه.

فإذن ليست كل عوائد المجتمع مذمومة، وإنما ما تطابق مع شرع الله وتوافق مع الحق فهو ممدوح، ويصبح من الناحية الاجتماعية كأنما هو مقياس، والأصل كما قلت هو الشرع.

كما قلنا في العقل نقول في المجتمع: أن جعل أصل هذه العادة مقياسا هو موافقتها لشرع الله، ولو خالفته لم تكن مقياسا ولم يعتدَّ بها، أما في المجتمعات الأخرى فالمقاييس الأخلاقية قد تختلف بحسب الوجهات، لأن الفلاسفة اختلفوا اختلافا كثيرا، فمثلا منهم من ردّ الأخلاق إلى الواجب، ومنهم من ردّه إلى اللذة، ومنهم من ردّه إلى غير ذلك.

أما بالنسبة لمصادر الإلزام، ما الذي يُلزم الإنسان أن يعمل بالأخلاق الحسنة ويبتعد عن الأخلاق القبيحة؟

الأصل في المجتمع الإسلامي أن إيمانه بالله وبرسوله هو الملزم له بهذا التحلّي بالأخلاق الفاضلة .

لأن الإيمان لا يكمل إلا بها، (**الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**)، فالإيمان شعبه متعددة كلها عبارة عن أخلاقيات يمارسها الإنسان ابتغاء رضوان الله سبحانه و تعالى.

ومصدر الإلزام الأساس هو: الإيمان بالله وطلب مرضاته، ولكن نجد إذا تأملنا الواقع أن هناك مصادر أخرى للإلزام تدفع المرء للعمل بشيء، وتحجبه عن العمل بشيء آخر، قد يكون مباحاً ولكنه يرفضه ولا يعمل به، ما الذي منعه عن العمل به، قد يكون هذا المانع هو ما توصل إليه بعقله مما رأى له فيه مصلحة،

إذن فالمصلحة أو المنفعة قد تكون سبباً للفعل أو الترك، فما رأى الإنسان له فيه مصلحة أقبل عليه وما كان لا مصلحة له فيه تركه وأهمله، ومن هنا تفاوت الناس، فبقدر التزامهم بشرع الله يكون تحكيمه في منافعهم، وبقدر ضعف التزامهم بشرع الله تكون المنافع والأهواء هي الحاكمة لتخلقهم، وقد يكون الشرع مانعاً من هذا الخلق ونرى أن الإنسان يمارسه، لأنه سبق إليه في نظره أنه أنفع له، طبعاً أنفع دنيوياً، أو سبق إليه قوة شهوته، أو سبق إليه أمر آخر، كرغبته في الجاه أو المنزلة عند الناس ونحو ذلك.

وقد يكون الملزم للإنسان بالأخلاق ليس إيمانه، وليس المصلحة المادية أو المعنوية كالجاه، بل **قد يكون الخوف من سلطة المجتمع**.

فيكون المجتمع هنا هو الرادع، والملزم بالأخلاق، وقد يكون خوفه من **السلطة القانونية الضابطة** والموقعة للجزاء حينما يخالف.

فإذن تتعدد مصادر الإلزام بالخلق: تتعدد حسب تأثيرها في الفعل أو الترك.

والشريعة قد جعلت من هذه المصادر للإلزام، أو وظفت هذه المصادر توظيفاً صحيحاً فجعلتها دافعة وضابطة،

فالسلطة مأمورة بأن تدفع الشر، وأن تجلب الخير بما يرهب الذي يخضع لنفسه وهواه، تضبط سلوك الناس، ولذلك قال رسول الله: (**إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**)، والمجتمع مأمور بأن يكون سلطة رقابية على الأخلاق السيئة والنوازع الفاسدة.

فشبه النبي صلى الله عليه وسلم المجتمع بأناس استهموا على سفينة، مجموعة ركبوا في سفينة فاقترعوا أيهم يكون في الأسفل وأيهم يكون في الأعلى، فكان نصيب البعض في أعلى السفينة ونصيب البعض في أسفل السفينة، وكان الذين في الأسفل إذا أرادوا أن يستقوا الماء، يمرون على من فوقهم فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، قد يكون مثلا المراد مصلحة ولكنها لم توافق القانون الصحيح، هم لا يريدون أن يؤذوا الذين من فوقهم، فيفكرون أن يخرقوا في أسفل السفينة خرقاً ليأخذوا الماء مباشرة، لكن لو فعلوا هذا لكان سبباً لهلاك الجميع، فقال: لو أنهم (معنى الحديث) لو تركوهم لهلكوا وهلكوا جميعا، ولو أخذوا على أيديهم لنجوا ونجوا جميعاً.

فهذا فيه أيضاً دور المجتمع في كف السفهاء والجهلاء، الذين أتاهم السفه من ناحية بغيهم أو من ناحية جهلهم، كفهم حتى لا يكونوا مصدر أذى بتصرفاتهم للمجتمع، وكذلك عن دور السلطة باعتبار أن السلطة أعلى المجتمع في حماية الكل، لأن الكل في سفينة واحدة، في حمايتهم من التصرفات الخلقة غير المسئولة، إما بسبب الجهل أو بسبب الظلم والعدوان.

والله عز وجل قد قال عن المجتمع: { **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** }،

ومن تعاون المجتمع على البر والتقوى: تآمره بالمعروف وتناهيه عن المنكر، وتناصحه في ذات الله عز وجل،

واستنكاره للشذوذ والتصرفات السيئة.

فالمجتمع إذن مصدر إلزام يوظفه الشرع توظيفاً صحيحاً.

والعقل مصدر إلزام يوظفه الشرع توظيفاً صحيحاً يهدي به إلى الرشد إلى الخير.

والفطرة أو الوعي والمعدن مصدر إلزام يوجهه الشرع أو يربيه ويزكيه حتى يكون ضابطاً لسلوك صاحبه بواسطة المجاهدة والمراقبة والاستمرار في العمل الصالح.

ولذلك كانت التزكية تزكية النفوس وتطهيرها من أعظم الوسائل لإصلاح الأفراد والمجتمعات، فلا عجب فالتزكية إحدى وظائف النبوة.

قال تعالى: { **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** }.

بين سبحانه وتعالى أن :

المهمة الأولى مهمة إقراء وإبلاغ،

المهمة الثانية مهمة تزكية وتربية وإنهاض إلى الله عز وجل،

المهمة الثالثة مهمة التعليم تعليم الحكمة تعليم الكتاب، فكانت التزكية أحد الأمور الأساسية التي تؤدي إلى الإصلاح والخير في حياة الأفراد والجماعات.

بناء على ما سبق، تتضح **أهمية الأخلاق في الحياة الاجتماعية** وأثرها العظيم، سواء في الحياة الفردية أو الاجتماعية، ويمكن أن نلحظ ذلك بالنسبة للشرع من عدة جوانب:

١-فالله عز وجل أعطى الأخلاق أهمية عظيمة، **نجد ذلك في وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالمثل الأعلى في الخلق** {

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ }، ولما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: "كان خلقه القرآن" فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الموطن والمجسد للأخلاق الواردة في القرآن الكريم، وطريق الاقتداء به بينه الله عزوجل في قوله سبحانه: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} فلكي يتأسى الإنسان برسول الله في خلقه .

هناك عوامل ثلاثة أساسية جامعة لهذا التأسي:

أولها: الإخلاص والتجرد لله سبحانه وتعالى: { لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ}،

ثانيها: تقديم الآخرة على الدنيا: { وَالْيَوْمَ الْآخِرَ }.

وثالثها: الإكثار من ذكر الله: { وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا }.

لأن الإكثار من ذكر الله جلاء للقلوب وطهارة لها، قال صلى الله عليه وسلم (**إن الإيمان ليخلق في صدر أحدكم كما يخلق الثوب، جددوا إيمانكم قولوا: لا إله إلا الله**).

فبيّن النبي عليه الصلاة والسلام أن الذكر هو المجدد للإيمان، فمن كان أكثر ذكرا لله عز وجل كان أكثر تجديدا لإيمانه، قال عليه الصلاة والسلام : (**سبق المفردون**) قيل وما المفردون يا رسول الله؟ قال: (**الذاكرين الله كثيرا والذاكرات**) هذا هو جوهر الخلق النبوي.

الإخلاص لله سبحانه وتعالى الذي يسري في الأقوال والأفعال وتقوم عليه وتتأسس عليه، وتقديم الآخرة على الدنيا، وتقديم ما يحبه الله ويرضاه على غيره، والإكثار من ذكر الله.

٢- المسألة الثانية الذي يدل على أهمية الأخلاق في الإسلام

أنه قد أشير إليها على أنها علة مجيء الرسالة النبوية قال عليه الصلاة والسلام (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**) لأن الأخلاق في حقيقتها علاقة مع الله عز وجل وعلاقة مع الخلق فلا بد أن يتخلق الإنسان بما يدنيه من الله عز وجل.

٣- ومما يدل على مكانتها **أنها جاءت كالتعريف بالدين:** (**الدين حسن الخلق**) أن التعريف الواسع الذي بيناه للخلق أن جوهرها سيكون موافقا للحق من حيث هي صفات ممدوحة أو معدن ممدوح، ومن حيث أنها صفات استقرت في النفس واستقاها، فإذا كانت صفات راقية فتصبح صفته صفة الحسن والجمال.

الحلقة (٩)

كنت في نهاية الحلقة الماضية بدأت الحديث عن **مكانة الأخلاق في الإسلام**، وقد ذكرت بعض النقاط:

١-إن أهم ما يبين قيمة الأخلاق ومنزلتها **ما وصف الله به نبيه صلى الله عليه وسلم حيث قال عنه** {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}، ولما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: " كان خلقه القرآن" ولا شك أن الأخلاق السامية الرفيعة هي للنبي صلى الله عليه وسلم.

ومن أراد التأسي به في ذلك فقد بين الله سبحانه وتعالى الأخلاق الجامعة أو الخصال الجامعة لهذا التأسي أو هذا الخلق العظيم، وقال سبحانه وتعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا }

فهذه الآية جمعت خصال الخير:

الأولى الإخلاص لله عز وجل وحده دون سواه .

والثاني إرادة الدار الآخرة وتقديمها على الدنيا فمن أحب لقاء الله أحب الله لقائه .

الثالث الإكثار من ذكر الله ولا شك أن من أحب شيئا أكثر من ذكره فمن أحب الله كان كثير الذكر له، ومن كان كثير الذكر لله سبحانه وتعالى كان حريا أن يحبه الله تعالى.

تذكروا فعل ذلك الصحابي الذي ندبه الرسول صلى الله عليه وسلم مع مجموعة من الصحابة فكان يصلي بهم، وكان يختم صلاته دائما بسورة الإخلاص { قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ } فلما رجعوا قالوا في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سلوه لم يفعل ذلك؟ فسألوه فقال: (إنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أذكرها) فبين لهم الرسول صلى الله عليه و سلم أن الله يحبه.

إذن فمن أكثر من ذكر الله تعالى ومن أحبه وأحب أسماءه وصفاته، كان حريا أن يحبه الله عز وجل، فتلك هي خلاصة الأخلاق و زبدتها وأساسها الذي يحصل به الإنسان على خيري الدنيا والآخرة، فيكون محبوبا عند الله عز وجل، ومقبولا عند الخلق، عادلا طيبا طاهرا بإذن الله.

٢- الأمر الآخر الذي يتجلى منه قيمة هذه الأخلاق **أنها جاءت كأنها تعليل لمجيء الرسالة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)** وذلك بأن **الأخلاق**:

تخلّق مع الله عزوجل وتخلّق مع الخلق، أو معاملة مع الله سبحانه وتعالى ومعاملة مع الخلق، فالدين كله لبيان هذه المعاملة فيما يتعلق بتعامل العبد مع ربه وتعامله مع مخلوقات الله عز وجل الأخرى، سواء منها الإنسان من بني جنسه أو المخلوقات الحية وغير الحية.

٣- ومما يدل على مكانة الأخلاق **أن الدين عُرِّف بها قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الدين حسن الخلق)** ذلك أن الإحسان هو قمة الدين وأعلى مراتبه، فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وحينما تكون عابدا لله عز وجل كأنك تراه، فإنك تكون محسنا غاية الإحسان، لأن من وصل إلى هذه الحالة كان حريا بأن لا يقع منه بإذن الله تعالى ما يسخط الله عليه، وإنما تكون كل أفعاله بإذن الله رضاً وتكون محبوبة من الله تعالى، بل تكون توفيقا من الله تعالى، لا يعمل عملا إلا كان فيه موفقا .

كما ورد في الحديث الشريف: (**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**) يجد كل عمل وكل حركة وكل سكون بتوفيق وبنور من الله سبحانه وتعالى، لا يقع بإذن الله تعالى في الخطأ بتوفيق الله وتسديده و حفظه ورحمته، وإلا فلا معصوم إلا من عصمه الله عز وجل.

٤- ومما يدل على مكانتها **أنها أساس في التفاضل، عندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم "أي المؤمنين أفضل؟ قال: (أحسنهم أخلاقا)** وكما قلت وأشرت أن الخلق هنا يؤخذ بالمفهوم الواسع الذي يشمل العلاقة مع الله سبحانه وتعالى ومع سائر الخلق، وكلما كان الإنسان متسما بالإحسان في تصرفه وفعله وقوله كان أحسن خلقا، وهذا شأن المصطفى صلى الله عليه وسلم في كل ما يأتي ويذر، ومن ذلك أيضا القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني منزلا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون).

٥- ومما يدل على مكانتها السامية **أن إحدى مهمات النبي عليه الصلاة والسلام هي التزكية، وذلك لأن تزكية النفوس أساس عظيم لصلاح الفرد والمجتمع بل لصلاح الكون**، لأن الصالح لا يأتِ منه إلا الصلاح والخير، والطالح يؤثر بفساده في كل ما

حوله، قال تعالى: { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } وبين أثر الفاسدين وكيف يحدث من الخراب في العمران والأنفس والكون، الله عز وجل قال عن نبيه الكريم، { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }، فلم تكن مهمته عليه الصلاة والسلام مقتصرة على التلقين ولا على التعليم ولا على مجرد البيان، وإنما كانت تزكية وتربية للأنفس، تصقلها بذكر الله وبطاعته وعبادته والسير على منهاجه ووفق ما يحبه الله ويرضاه، وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يأخذ المسلمين بهذه التربية وينتشلهم انتشالا، سواء بالتوجيهات العامة أو بالتوجيه الفردي أو بالتدريب على الخير (صلوا كما رأيتموني أصلي)، (خذوا عني مناسككم)، (ارجع فصل فإنك لم تصلِ)، (ويل للأعقاب من النار)، وهكذا وإلى آخره، فإذن كان عليه الصلاة والسلام يربيهم بكل شيء في الحادثة يربيهم وفي القصة يربيهم ويضرب لهم الأمثال، ويأخذ بأيديهم إذن في كل شيء، فحين يقع الخطأ يباشر بالتوجيه حتى لا يترسخ الخطأ: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) وحينما تكلموا في القدر وتناقشوا فيه خرج وكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان، ونهاهم النبي صلى الله عليه وسلم وبين أنه مما أهلك الأمم من قبلهم.

إذن كانت توجيهاته عليه الصلاة و السلام تأخذ بأيديهم وترقيهم على مستوى القول والفعل، على مستوى العلاقة الاجتماعية، على مستوى العلاقة الإنسانية، وهذا دليل على عظم مكانة التزكية الأخلاقية والتربية وتطهير النفوس، ومساحته من الدين هذه المساحة الكبيرة، بل الأساس الذي تقوم عليه الأمور الأخرى، فلو تعلم الإنسان الكتاب ولم تتزكى به نفسه ولم تترشح وتتطهر به نفسه، فلا قيمة لذلك الكتاب أو لذلك التعليم سيظل ذلك شيئا محفوظا في رأسه، وكأنما يكون شيئا محفوظا في جهاز أو كتاب لا يعدو أن يكون شيئا يستقبل أو يبث أو نحو ذلك، لكن حينما تتحول هذه المعلومة إلى سلوك وعمل وخلق وإيمان وإلى بر وإحسان، هنا يكون التأثير.

فإذن { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ } ليس فقط لمجرد التلاوة وإنما لكي تؤثر في صقل القلوب وتحريكها نحو علام الغيوب.

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم تكامل هذه الوظائف الثلاث: التلاوة و التزكية وتعليم الكتاب والحكمة، فتثقيف وتزكية وتعليم عناصر ثلاثة عناصر متكاملة تصنع الخلق الرفيع، وهكذا كان الجيل الذي تربى على يد رسول الله لم يكن بهذا الشكل إلا لما خضع له من تربية أخلاقية عظيمة، ومن سهر متواصل على يد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

هذه بعض الأدلة، وما يبين ويكشف مكانة الأخلاق في الإسلام، ولست هنا بصدد حصر كل ما جاء من الآيات والأحاديث، فذلك أمر يطول، ولكن حسبنا هذه الإشارات التي أبانت عن مكانة الأخلاق في الإسلام، وأنها جوهرية فيه، بل هي شاملة لكل جزئية ولكل عنصر من عناصر الدين، لأن الدين جاء لبناء الفرد وبناء المجتمع وإسعاد الإنسانية كلها، ولا يتم ذلك إلا بإيمان عميق وخلق عظيم أو ممارسة أخلاقية عظيمة، تدفع الفساد وتقلل آثاره، وتأتي بالصلاح وتزيد من ثمراته.

❖ خصائص النظام الخلقي في الإسلام:

الأخلاق في الإسلام ليست أخلاقا نظرية تدرس و يكتفى بدراستها، أو الجدل حولها فلسفيا، وإنما هي أخلاق كما اتضح تعمل في كل لحظة من اللحظات، تعمل في الأنفس مطهرة لها ومزكية ورافعة لها في كل لحظة من اللحظات، بناء على انبثاقها من الإيمان بالله سبحانه وتعالى وإرادة وجهه عز وجل، وتوسلا إلى ذلك بذكره سبحانه وتعالى، سواء كان ذلك بالذكر القولي أو بالذكر العملي، سواء كان بالشعائر المحددة أو بالتصرفات الممدوحة، كل ذلك هو في حقيقته وجوهره ممارسة أخلاقية تنعكس على روح المؤمن بالطهارة والنماء، وتنعكس على حياته بالخير والفلاح والصلاح .

➔ فمن خصائص هذا النظام:

- الخصيصة الأولى: التعميم والتفصيل..

بمعنى أنه جاء بتوجيهات عامة تشمل الأخلاق كلها، وتسري فيها كلها، وجاء بتوجيهات مفصلة للعديد من الأخلاقيات، سواء كانت أخلاقيات فردية أو أخلاقيات ذات صلة بالعلاقات الاجتماعية، أو صلة بالإنسانية كلها، بهذا الشكل جاءت التوجيهات الأخلاقية وجاء توضيح الأخلاق في الإسلام، فمن ذلك مثلاً قول الله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } فهنا فيها أخلاق جامعة عامة إذا عملها الإنسان جمعت له أخلاقا كثيرة، { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ } **والعدل** يسري في الحياة كلها أول مجال من مجالاته هو النفس، العدل **مع الله سبحانه وتعالى بأن لا تشرك به شيئا** لذلك ورد { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } الشرك بالله الظلم الأكبر، لأن من فعل ذلك فقد جار في علاقته مع الله سبحانه وتعالى، فحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، فإذا وقع العبد في الشرك وقع في أشد أنواع الظلم، لأنه أساء إلى من أحسن إليه وأوجده من عدم، وأمده وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، فأساء الأدب هنا، وقدم ما حقه التأخير، وأخر ما حقه التقديم، فأساء في هذا الأمر وخالف الحكمة في وضع الشيء في غير موضعه، إن الله يأمر بالعدل فالعدل إذاً فالنفس.

والعدل في الممارسة سواء في بيعه وشرائه أو تصرفاته مع الناس في أخذه وعطائه في توجيهه وقوله لا يجاوز الأصل أن الإنسان لا يجاوز الحد في كل ما يأتي ويذر، سواء مع الله عز وجل أو مع الناس أو مع عالم الغيب أو مع عالم الشهادة، سواء مع نبات أو مع حيوان أو جماد، فلا يجور على الأشياء التي وضعها الله لنفع العباد.

فمثلاً: قوله صلى الله عليه وسلم (لا يسرف أحدكم ولو كان على نهر جار) فالإسراف هنا جور، مضاد للعدل، كمن يسرف فيما حبى الله به عباده من النعم، كما نرى حال الحضارة المعاصرة التي تنطلق مع إرادة الربح، غير مبالية بالأرزاق التي ادخرها الله لعباده وللأجيال القادمة، فالله سبحانه وتعالى وضع في الأرض كفايتها، ولكن الإنسان يجور على هذه الكفاية فيستهلك لجيل واحد ما يكفي لأجيال، وهذه هي المأساة التي بدأ الغرب نفسه يشعر بها، وبدأ عقلاؤهم ينادون بضرورة الاهتمام بمستقبلنا المشترك، وبالمحافظة على كوكبنا الأرضي من هذا الظلم الجائر، الذي هو نتيجة المنطق الرأسمالي المريد للربح، المتهافت على الدنيا، الذي لا يشبع، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام (لو أوتي ابن آدم واديان من ذهب لسئل ثالثا ولن يملأ فاه إلا التراب)

فنلاحظ هنا الجور على المعطيات الكونية التي جعلها الله في الأرض لإسعاد عباده وكفايتهم، هذا جور على الموجودات وعلى المخزون لبني البشر ممن هو حاضر ومن سيأتي، وهنا قد يكون جور في إفساد الأرض، مثل تلوث البيئة وما يحدث نتيجة ذلك، ومثل تخرق طبقة الأوزون وغيرها من الأشياء والتغيرات المناخية المترتبة على إفساد الإنسان وعلى جوره في استثمار الأرض، كذلك مما يتضاد مع العدالة أخذ الإنسان ما ليس له وتعديه على حقه في علاقته مع الناس في بيعه وشرائه وأخذه وعطائه وإدارته وغير ذلك،

إذن الشاهد من ذلك أن العدل قيمة تسري في كل أفعال الإنسان وتصرفاته، وحين يقول الله سبحانه وتعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ }.

كذلك **الإحسان** يسري في كل شيء كما قال صلى الله عليه وسلم (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليريح ذبيحته) حتى في حال القتل والذبح يجب أن يكون

بإحسان لا أن يكون بإساءة.

ولذلك مثلا من مظاهر الإحسان، الإحسان إلى العدو.

فمثلا حينما يؤسر أسرى من العدو عند المسلمين، فالمفترض والواجب عليهم أن يعاملوهم بغاية الإحسان، لذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يبروهم ويقدموهم على أنفسهم إيثارا وتأدبا مع الله عز وجل، لأن هذا هو مقتضى منطق الإحسان؛ فالعدل والإحسان قيمتان عامتان تسريان في كل ما يأتيه الإنسان ويذره، وهي في الحقيقة من المشترك الإنساني الذي يعني أن الناس جميعا يحبون العدل والإحسان، ويحبون من يمارسهما، ويبغضون من هو ضد ذلك أو من هو ينحرف عن العدل والإحسان، فمن كان مسيئا وغير عادل يتضايق الإنسان منه، فكانت هاتان الصفتان من أعظم الصفات وأعمها التي تدخل في كل الأفعال ويمارسها المسلم والكافر على حد سواء، حتى الكافر يفعل العدل الاجتماعي، وإن كان العدل النفسي قد عد ظالما من حيث عدم توحيده لله سبحانه وتعالى، وهو مسيء من حيث علاقته بالله التي هي قائمة على الإحسان، وإن كان يمكن أن يظهر عليه الإحسان من ناحية العدل مع الخلائق كلها، سواء كانت مخلوقات حية أو غير الحية، وقد يظهر عليه الإحسان كذلك في رفقه بالبشر أو رفقه بالحيوان أو رفقه بالنبات والبيئة، لذلك لدى الآخرين مظاهر لهذا الإحسان، بل مؤسسات إحسانية، ويبدو عليها قيم جميلة يحبها الله عز وجل ويرضى عنها، والإسلام يقر هذه الأخلاقيات التي قد يمارسها غير المسلمين، وتظهر على سلوكهم وتصرفاتهم، هذه هي الخصلة الثانية التي هي خصلة عامة وشاملة تسري في كل أفعال الإنسان.

الحلقة (١٠)

ذكرت فيما مضى خصلتان من هاتين الخصال الشاملة

هما خصلتا العدل والإحسان، وذلك انطلاقا من قول الله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى }

{وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى }هذه قيمة ثالثة من القيم، ومما فطر الله عز وجل النفوس عليه أن تميل إلى ذوي القربى، وتحن إليهم، وتتواصل معهم، وهذا سلوك فطري غرسه الله في أنفس عباده،

ولذلك جاء الدين موجهاً للعناية بهذا الجانب، ولكن بالعدل، معنى أن لا تكون محبته لذوي قرباه وبره لهم على حساب عدله وعلى حساب الآخرين، فهناك فرق بين بر ذوي الرحم والأقرباء ووصلهم والإشفاق عليهم والرحمة بهم، وهناك فرق بين تقديمهم بغير حق على غيرهم، فالذي في الآية هو الأمر ببرهم ووصلهم والإشفاق عليهم والرحمة بهم وتقديمهم فيما ينفق من خير إذا كانوا مستحقين لذلك، لذلك لما سمع أبو طلحة رضي الله عنه بقول الله عز وجل { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ } قال يا رسول الله إن أحب مالي إلي بيرحاء وقد جعلتها في سبيل الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم (بخ بخ ضعها في الأقربين) لماذا؟

لأن من طبائع النفوس أنها ترى بحكم القرب أنها أولى بقريبها، فلو فرضنا أن أبا طلحة قسم ماله في الأبعدين وترك أقاربه ولاسيما من كان محتاج منهم، لوجدوا عليه في أنفسهم، وساءت العلاقة بينه وبينهم، فالنبي عليه الصلاة والسلام لاحظ في حكمه هنا الجمع بين الإحسان وبين إيتاء ذوي القربى، تناغماً مع التوجيه القرآني العظيم، الذي جاء بإيثار ذوي القربى، والتواصل معهم، والإشفاق عليهم، وتقديمهم فيما هم يستحقونه، لا تقديمهم بغير حق.

على الجهة الأخرى هذه هي الأخلاق الإيجابية العامة { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ } فجاء بثلاث صفات جامعة للفساد والظلم والسوء وخراب العمران، فهذه الأخلاق الثلاث السيئة الجامعة وأيضاً الفحشاء والمنكر ترجع إلى البغي، **فالبغي** أشمل شيء وإن كان المنكر والفحشاء قد لا يكونان ناتجان عن **البغي**؛ فقد يكونان ناتجان عن **الجهل**، وليس عن البغي، ولو علم من فعلهما ربما لم يفعل بعض الأمور، فقد يقع الإنسان الجاهل في فحشاء، سواء من القول أو الفعل، وقد يقع في منكر من القول أو الفعل جهلاً منه بأن هذا من هذا السبيل.

ولذلك كان والله أعلم هذا التفصيل بين هذه الأخلاق الثلاث، التي جمعت المفاسد كلها، وهكذا الأخلاق في الإسلام هدم وبناء، هدمٌ للسابق من السيئ، وتسويةٌ لأطلاله، وبناءً وإقامة للطيب من القول والفعل، حتى يؤتي ثمرته ويقوم البناء شاهقاً بإذن الله، يؤتي ثمرته في كل حين بإذن ربه، فإذن هذا نموذج للأخلاق العامة الجامعة الشاملة.

ثم هناك تفصيلات عديدة جداً أذكر أمثلة عليها { وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا }فهنا توجيه إلى **الوفاء بالعهد، وهي خصلة من الخصائل، وإن كانت حتى هذه الخصلة فيها شمول.**

فإذا تأملنا في الخصائل وجدنا أن حتى ذات الخصلة تجمع بين العموم وبين التفصيل؛ فالوفاء بالعهد ليس عهداً معيناً مثلاً بين الصف المسلم وبين غيره، وإنما أساس العهود ولبها وجذرها الذي تقوم عليه سائر العهود والعقود هو الوفاء بالعهد مع الله عز وجل.

الله سبحانه قد أخذ العهد والميثاق على بني آدم بأن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، وعبادته وحده من مقتضاها الالتزام بأوامره والكف عن نواهيه، وهو سبحانه وتعالى يحب الوفاء بالعهود مهما كان ومع من كان العهد مع مسلم أو كافر

لابد أن يفي الإنسان بوعده وبعهده وعقده، فلدينا عقد و وعد وعهد وكلها لازمة الوفاء، والوفاء بها محبوب عند الله سبحانه وتعالى، فنلاحظ إذن مع التخصيص في مجال العهد هناك تعميماً في أنواع العهود يشمل العهود والعقود كلها.

الثاني مثلا من الأخلاقيات الجزئية **النهي عن الإسراف والتبذير** { إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } فهنا نهي عن هذه الصفة السيئة التي هي للأسف من صفات هذا العصر، بسبب هيمنة الروح الرأسمالية، التي لا تعرف حداً في الطمع والجشع، فسمتها التبذير، وذلك من السمات السيئة المذمومة التي حذر الله منها، **وأمر بضدها وهو الاعتدال في الإنفاق، ونهى عن ضدها، وأمر بما يدفع ضررها**، فضد الإسراف والتبذير هو البخل والتقتير.

ولذلك جاء التحذير من الشح والتحذير من البخل { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } والآية الأخرى التي أمرت بما يدفع الطرفين معاً، يدفع الشح والبخل ويدفع الإسراف والتبذير هي: { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا } فرد الإنسان إلى العدل مرة أخرى هنا، العدل في الإنفاق فالعدل في الإنفاق منافي للشح والبخل ومنافي للتبذير والإسراف.

الناس يظنون ربما أن التبذير هو بالإنفاق الواسع، فليس التبذير الإنفاق الواسع، **التبذير** هو الإنفاق بغير حق وإن كان شيء قليلا، فإن كان شيئاً قليلاً بغير حق فهو تبذير، وإن كان شيئاً كثيراً بحق فهو محبوباً عند الله عز وجل.

فمثلاً من أنفق في سبيل الله ولو كان كثيراً ليس هذا تبذيراً وليس تفويتاً للمال، لذلك مثلاً في غزوة تبوك التي سمي جيشها جيش العسرة لمّا حث النبي صلى الله عليه وسلم الناس على الإنفاق جاء أبو بكر بماله كله فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (ما تركت لأهلك) قال (تركت لهم الله ورسوله).

ولا يعني هنا أن الإنسان ينفق ما عنده ثم يجلس يتكفف الناس، النبي صلى الله عليه وسلم قَبِل من أبي بكر لأنه كان مليء القلب بالإيمان، وأيضا من جانب الآخر لأنه كان يمتلك المهارة والقدرة على استجلاب المال مرة أخرى واكتساب المال، أمّا

لمّا يكون الإنسان لا يقدر على المال وعلى اكتسابه أو إن قلبه معلق بماله أو شيء من هذا فيجب أن لا يكون متهوراً وينفق ما بيده، لذلك لما جاء رجلاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاه قطعة من ذهب وقال هذه كل ما أملك، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم مرة ومرتين وثلاث وقال (**يعمد أحدكم إلى ما بيده فينفقه ثم يتكفف الناس**).

فهذا مذموم حتى لو كان منفقاً في سبيل الله، لأن إنفاقه هنا ليس في محله، ينفق ثم يسأل الناس، هذا أمر غير صحيح، وأمر مناقض لطبيعة العمران، ولِم جاء به الإسلام، فالإسلام لا يمكن أن يتناقض.

فقبول النبي عليه الصلاة والسلام من أبي بكر لأن فيه خصلتان:

الخصلة الأولى عظم التوكل والصدق مع الله سبحانه .

الخصلة الثانية وهي أنه رجلٌ يعرف أساليب التجارة ورجل له وجاهة عند التجار يستطيع أن يشتري بجاهه ثم يعود ويدفع المال من بعد، فهناك ثقة في أبي بكر عند التجار، لأنه تاجر كسائر التجار، لذلك لا تهتز مكانته بإنفاق ما لديه من مال، وعمر رضي الله عنه أنفق شطر ماله في تلك الواقعة، وهكذا.

فإذن : المهم والشاهد أن الإنفاق ليس مجرد الإنفاق وإن كان كثيراً يعني الإسراف، وإنما الإنفاق بغير حق ولو كان ريالا واحدا فهذا إسراف وتبذير إن كان بغير محله.

⬅والشح والتقتير هو عدم الإنفاق على أوجه الحق :

فمثلاً من لديه أولاد ويقصر في النفقة عليه فهذا شحيح، ومن يلزمه إخراج زكاته ولا يخرجها فهو شحيح وبخيل، بخل بحق الله وهكذا..

فإذن **البخل** حده هو من كان لا ينفق ما تتطلبه أوجه الحق في الإنفاق، لذلك لم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على هند بنت عتبة لما جاءته وقالت إن أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ، فهل آخذ من ماله وهو لا يدري؟ فقال خذي من ماله ما يكفيك وأولادك، فلم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم على قولها رجل شحيح لماذا؟ لأنه يمنع أولاده مما يستحقون، فأخبر أنه في هذا الحال شحيح وبخيل لماذا؟ لأنه منع وجه حق، وأذن لمن له حق في ماله أن يأخذ منه بقدر كفايته ولا يحيف، فقال: (**خذي من ماله بقدر مايكفيك وأولادك**)، فالشاهد هنا: أن الله عز وجل أمر بالاعتدال في الإنفاق ونهى عن الطرفين اللذين يؤديان إلى الوقوع في المحظور.

من الصفات التي جاءت مفردة **الصبر** { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ }، والصبر كذلك كما أن العدل جمع بين العموم والخصوص، فكذلك الصبر، الصبر صفة لكنها تسري في كل الأمور الدنيوية و الأخروية، من أراد وجه الله والدار الآخرة يحتاج إلى صبر و مصابرة ومجاهدة لنفسه في ذات الله، وصبراً عن أهوائه، ودفعا لها، وكذلك من أراد أمراً من أمور الدنيا لابد له من الصبر، وبدون الصبر لا يمكن أن يحصل على مراده.

فمثلاً :من أراد أن يقيم التجارة يعلم أنه لن يربح بين عشية وضحاها، فلابد له أن يصبر حتى تؤتي تجارته ثمرتها، وكذلك الزارع حين يزرع البذرة ينتظر ويصبر حتى تؤتي ثمرتها، وكذلك الطالب يصبر حتى يؤتى نتيجته في نهاية الفصل، ومن أراد أن يتعلم لغة أو يتعلم مهارة فلابد له من الصبر، وإذا لم يصبر لم يحصل على هذه المهارة وهذه اللغة.

فالصبر صفة تسري في جميع أعمال الإنسان دينها ودنيويها وهي شرط لتحصيل النتائج والثمرات..

كذلك فالله عزوجل يأمر المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، {وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} وأن يصدقوا في هذه الأمور، **الصدق** يكون مع الله ..

ويكون مع الخلق كذلك، **يكون مع الله** بأن يكون قاصداً وجهه سبحانه وتعالى صادقاً في طلبه، **والصدق مع الخلق** في صدق الحديث بأن لا يكذبهم فيما يتحدث به عن أمور مبينة، والصدق هو المأمور به دائما، وأن يكون الإنسان فاعلاً له بكل الأحوال.

من الأخلاقيات الاجتماعية التي جاء الأمر بها **وفيها عموم**

{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى } **البر** شامل لكل عملٍ طيب ولكل عملٍ خير

و{لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} **فالبر** هنا في مقابل **الإثم**،كما المعروف في مقابله المنكر فهي عموميات .

فالبر يشمل كل عمل خير..

و**المعروف** يشمل كل عمل طيب ..

وكذلك **الإثم** يشمل كل عمل سيء..

و**المنكر** يشمل كل عمل مذموم وخارج عن الحق وعن الذوق والأدب.

الثبات على الحق أيضاً قول الله عز وجل { **الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** } ولما جاء ذلك الرجل إلى رسول الله وسأله قال "قل آمنت بالله ثم استقم"، **الاستقامة بالاستمرار على العمل** من أفضل الأشياء لماذا؟

لأنها تؤتي الثمرة، ولا تؤتى الثمرة إلا بالاستقامة والاستمرار، فلها وجه إلى الصبر، لذلك كانت سبباً لإتيان الثمرة، الإنسان مثلا الذي يستقيم على صلاته تؤتي الصلاة ثمرتها، لو فرضنا أنه يتقطع في أداء صلاته لن تكن الثمرة هكذا، ولذلك جاء امتداح من داوم على عمل وإن كان قليلاً، فبين المصطفى صلى الله عليه وسلم أن "أفضل الأعمال أدومها وإن قل" لماذا؟ لأن المداومة تؤتي الثمرة.

فإذا كان هذا في أمور الدنيا فكذلك في أمور الآخرة، فمن كان مثلاً يجلس يوماً ويستغفر كثيراً ويقرأ القرآن كثيراً ثم يتوقف شهراً مثلاً، أو عشرة أيام، وتتراكم السيئات على قلبه وتؤثر فيه تأثيراً كبيراً، لأن السيئات كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنها أي الصغائر تجتمع على الرجل حتى تهلكه، لماذا؟ لأن كل عمل سيء يؤثر في القلب، فما يزال هذا التأثير مستمراً حتى يصل القلب إلى الانتكاس والطمس ، ولكنه يعمل حسنةً وهكذا فإن المقاومة مستمرة ..

ومن حكمة الله و فضله على المسلمين أن جعل لهم هذه الصلوات الخمس مفرقة في الأوقات، ثلاث منها في النهار، واثنتان في الليل، ويبدأ الإنسان بها في مطلع نهاره، ويختم بها يومه، كأنها حسنات تذهب سيئاته، كلما انغمس أو تأثر أو تدنس عاد في الصلاة وطهرته، وهكذا ولذلك مثلها عليه الصلاة والسلام بنهر جارٍ قال :

(**أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه في اليوم خمس مرات هل يبقى من درنة شيء؟ قالوا: لا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**) فالصلوات الخمس تعمل لك اغتسال في كل مرة تطهرك، فجريان النهر بيان الإيمان واستمراره ، والصلوات انغماسا في هذا النهر، والماء هو لب الإيمان هو مظهر الإيمان هو شعار الإيمان وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ..

من ذلك أيضاً **السكينة، والتوبة، والحلم، والرفق، وترك الفضول** وهذا من الأمور المهمة، ترك الفضول يفترض في المسلم أن لا يشغل نفسه بما زاد، فكثير من أمراض القلوب تأتي من الفضول، فضول النظر وفضول السمع وفضول الطعام.

الحلقة (١١)

انتهيت في حلقة سابقة إلى الحديث عن **الخصيصة الأولى** من خصائص الأخلاق الإسلامية وهي **التعميم والتفصيل**

هناك أخلاقيات سيئة منها مثلاً: **تجسس الناس بعضهم على بعض** وإطلاعهم على عورات بعض، فهذا مما نهي عنه، ومما منع النظر في العورات أو محاولة كشف ما يخفونه الآخرين من أمورهم المستورة عادة التي أمر الله عز وجل بسترها.

كذلك من الأمور المذمومة: **الغضب في غير الحق.**

وكذلك **الفجور في المخاصمة أو في القول،** أيضاً منها **الرياء وقصد غير وجه الله سبحانه وتعالى بالعمل،** والرياء أمر دقيق أحيانا يدق عن الشعور ويلقيه الشيطان أحياناً في القلوب، ليزين من خلاله الإنسان أعماله حتى يراه الناس، فلذلك ورد التحذير منه، وتذكير الناس بالتوبة منه والاستغفار منه (اللَّهُمَّ إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم) .

يذهب بإذن الله أثر ما قد يعرض للقلوب من رياء مما قد لا تسيطر عليه، لأن الرياء يأتي في شكل إلقاء سريع يحاول الشيطان من خلاله إفساد عمل العبد ..

ومن ذلك ومن أسوئه **النفاق،** سواء كان "النفاق الاعتقادي" وهو أسوأ شيء، من يخادع الله سبحانه وتعالى ويظهر الإيمان ويبطن الكفر، { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } ، { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا }.

"وقد يكون نفاقاً عملياً" يمارس من خلاله أعمال المنافقين،لأن جذر النفاق هو الكذب والغدر والفجور وغيره، لأنه ينقض عهده مع الله سبحانه وتعالى "هذا المنافق الاعتقادي"، ويكذب على الله سبحانه تعالى، فمن كذب على الخلق ولم يكذب في إيمانه وصدق في إيمانه، ولكنه يكذب مع الخلق، هنا صفة عملية من صفات المنافقين، فيكون فيه صفة من صفاتهم، ولكن لا يعني أنه من أهل النار الذين قال الله عز وجل عنهم { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }، أصحاب هذا الوصف أو هذا الجزاء أولئك الذين كذبوا على الله، فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، ولكن من كذب على الخلق فعمله سيء، وينبغي أن يتوب إلى الله منه، وهو خطيرٌ عليه، لأنه كذب على الخلق، ربما يقوده ذلك لما هو أعظم، لذلك جاء التحذير : (إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)، لذلك لا يستهين الإنسان بالكذب على الناس، وهذا مذموم وسيء، ولكنه منكر ولا يخرجه من الإيمان.

وكذلك مما ذم من الأخلاقيات: **المراء والبذاءة (بذاءة اللسان)،**

وكذلك **الذل لغير الله** سبحانه وتعالى فالمؤمن لا يذل لغير الله.

الأخلاق كثيرة ومتعددة وكما قلت هي شاملة للحياة الإنسانية ومستغرقة للحياة كلها لذلك كان الإسلام كله آداب وخلق، خلق مع الله سبحانه وتعالى وخلق مع الخلق كافة بكل أصنافهم.

❖ **الخصيصة الثانية: الشمول لأفعال الإنسان:**

وهي وجه أخر للتعميم والتفصيل، فالتعميم والتفصيل لاحظناه من ناحية القيم نفسها، وأنها جاءت عامة وشاملة في ذاتها، والشمول بأفعال العباد نظرنا إليه من حيث الفعل الإنساني، وأنها وجهت كل أفعال الناس ما كان منها لله سبحانه وتعالى وما كان منها للأخلاق..

ولذلك جاءت الأخلاق منها ما هو **قيم عليا** أو أخلاق أساسية التي هي مثل التوحيد والعدل فيما يتصل بالله سبحانه وتعالى والإحسان ونحوه.

وهناك قيم أشبه بالقيم الحضارية التي يدخل في نطاقها كل شي من الخلق وحتى علاقات المسلم مع الكافر فحتى هذه يدخلها الأخلاق بل هي مقامة في الإسلام على الأخلاق والعدل والإحسان، كذلك الأخلاق شاملة لحياة الإنسان كفرد فجاءت بالإعمال التي ينبغي عليه أن يعملها، والأخلاق التي ينبغي عليها أن يبتعد عنها.

كذلك في علاقات المجتمع بعضه مع بعض، وسبقت في النقطة السابقة الإشارة إلى قول الله عز وجل { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ }، { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ }، { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ }، { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }، { وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }، فهذه أيضا تدخل في العلاقات وتوجه العلاقات كلها وجهة سليمة، وتنهى عن الشيء الآخر {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا }، فهنا أيضا أخلاقيات فيما بين أفراد المجتمع، حتى تدفع عنهم الممارسات السيئة،(**فلا تحاسدوا ولا تبغاضوا ولا تناجشوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله أخواناً**).

كل صفة ذميمة يمكن أن تؤدي إلى القطعية منهي عنها..

❖ **الخصيصة (الثالثة) وهي قيامها على التقوى** :

لأن الأخلاق ليست أخلاق اجتماعية إنسانية فقط، بمعنى مؤسسة على المصلحة الإنسانية، فهذا هو الفرق في الأساس، يعني مثلا يلفت انتباه الناس أن الغربيين مثلاً لديهم دقة في الوقت، ووفاء مثلا بعقد، كعقد عمل مع الشركة تجد أنها تفي به، في حين قد لا يتوفر هذا عند المسلمين، يتعجبون من هذا لماذا؟

لأن هذه الأمور بنيت على أمرين: ١.على المصلحة والمصلحة جاء معها؟.الجزاء،

الشركة تعرف أنها لو تجاوزت القانون وقعت تحت طائلة العقاب، وكذلك من يتعاقد معك يعرف أنه لو أخطأ سيحاكم وسيقع عليه الجزاء، فمن مصلحته أن يفي معك، فالدافع إلى الوفاء بالعهود، والوفاء بالعقود، والالتزام وعدم الإخلال بشيء، وعدم الغش الدافع له المصلحة والخوف من إيقاع الجزاء من طائلة القانون، ولو سلم من طائلة القانون لم يهتم بذلك..

وهذا فرق عظيم بين تأسيس الأخلاق في الإسلام، وتأسيس الأخلاق لدى الآخرين:

فالأخلاق لدى الآخرين مؤسسة على المنفعة، لكن لدينا أسست على المنفعة الدنيوية والأخروية فمنفعة الإنسان مع الله عز وجل أولاً، فهي التي يتوقف عليها برحمة الله نجاته أو هلاكه عند الله سبحانه وتعالى، فجزاؤه ليس جزاءاً تشريعياً فقط، لا شك أن الإسلام سن جزاءًا تشريعياً لمن فرط في المعاملات مع الناس، لمن خان الأمانة مع الناس، لمن سرق، لمن زنى، سن عقوبات وجزاءات وسيأتي الحديث عنها، ولكن في المقابل أعطى أجراً عظيماً لمن عمل أو ترك شيئاً ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

فمن ميزة هذه الأخلاق الإسلامية أنها مؤسسة على ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، وأن مصلحة المسلم الدنيوية لا تنفك عن مصلحة المسلم الأخروية على الإطلاق، ولذلك يترك كثيراً مما قد يكون فيه فائدة عاجلة لأنه محرم.

مثلاً المسلم الأصل أن لا يرابي لماذا؟ لأن الربا مسخطٌ لله سبحانه وتعالى، فالربا قد يكون فيه مكاسب، والاحتكار قد يكون فيه مكاسب وتتعاظم مكاسبه على التاجر، لكن تجد أن التاجر المسلم لا يعمل هذه الأعمال، المسلم الملتزم وليس كل مسلم، فمن المسلمين من يتجاوز ومنهم من يسيء ومنهم من يظلم،

فإذن الأخلاق هنا في الإسلام تقام على ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، وعلى جزاء دنيوي وأخروي، ليس جزاء أخرويا فقط كما يدعي البعض ويقول: إن الدين ما فيه إلا جزاء أخروي ولا يعاقب في الأمور الدنيوية، هذا غير صحيح لو كان كذلك لكان مثالياً وخيالياً لماذا؟ لأن الإنسان يغلب عليه الحس، فإذا لم يحصل الشذّاذ على ما يردعهم بالجزاء، فلم يبالوا بهذا الشيء و سيحبوا الدنيا و يعجلونها على الآخرة، فالآخرة مؤجلة ولا يمكن أن يلتفت إليها إلا من كان مؤمنا بها

أما من كان إيمانه ضعيفاً فتغلبه نفسه، فلذلك جاءت الجزاءات، فالأخلاق الإسلامية مؤسسة إذن على الإيمان وعلى الجزاء، والجزاء كما قلت في الإسلام ليس جزاءاً أخرويا بحتا كما يدعي البعض أو يزعم إن الجزاء في الأديان هو أخروي، لا، هو جزاء أخروي وجزاء دنيوي، فالجزاء الأخروي أساسه فضل الله ورحمته..

لكن نحن ننظر أيضا إلى ما أسسه الإسلام، لأن الإسلام راعى الواقع الإنساني، فواقع الإنسان كما ذكر الله عنه { **إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** }

وكما قال صلى الله عليه وسلم **(لو أعطي الناس بدعواهم لادعى رجال دماء رجال وأموالهم)** فكان لابد من حزمٍ في الجزاء، ومن تحديد أنواع منها بحسب الجرائم التي قد تقع من الإنسان فتردعه، إن لم يردعه إيمانه ردعه حياؤه من المجتمع، وخوفه من سلطة المجتمع، إن لم تردعه سلطة المجتمع ردعته السلطة بما تقيم عليه من جزاء،

فهذه الجزاءات محددة ومفصلة، منها ما قد حددها الله (كعقوبة السارق وعقوبة الزاني، ونحو ذلك)..

ومنها ما هو مفتوح لاجتهاد الإمام، يجتهد فيه الحاكم بحسب وضع المعصية والاعتداء على الآخرين، بحسب تلك الممارسة الأخلاقية السيئة، فيسن له بحسب الاجتهاد ما يلائمه، أو يحكم فيه بما يلائمه بما يردع هذا الذي تجاوز وانتهك الأخلاقيات الاجتماعية، لدينا أخلاقيات اجتماعية يجب أن ترعى، فمثلاً هناك من الأخلاقيات التي تهدد أحياناً الاجتماع وممكن تثير التشاحن، مسألة القذف، أن إنساناً يقذف إنساناً آخر ويتهمه بأمر مشين، هذا القذف حده إذا كان قذفا في عرضه بُيّن حده في الكتاب العزيز، ومن آذى آخر بشتم وسوء فيعاقب بحسب ما صدر منه بحق هذا الآخر، وإن لم تأتِ أحياناً عقوبة محددة في الشرع، فهناك ما يسمى عند العلماء بحد التعزيز، وهو مجال مفتوح وواسع ويجتهد فيه الحاكم بحسب ما يلائم كل حادثة أو حادث أو جريمة من الجرائم بما بلائمها.

فالشاهد أن الأخلاق في الإسلام ليست أخلاقا كما يقولون طوباوية أو مثالية، لا تنزل إلى أرض الواقع، ولا إلى طبيعة الناس وإلى فطرتهم، وإنما هي متلائمة مع هذا، يقضى فيها بما يلائم حال الناس ويحفظ عليهم اجتماعهم.

(رابعاً) من خصائص الأخلاق أنها موافقة للفطرة البشرية:

فالفطرة البشرية تحب السلام، تحب الأمن، تحب الخير، تحب الصدق، تحب الوفاء، تحب كل خلق طيب، هذا لا يعني أن الإنسان لا يفعل الأخلاق السيئة، ولكن هو يحب الصدق، ويحب أن يصدق الناس معه، وإن كان يكذب، يحب الوفاء بالعهد وإن لم يفِ بالعهد، فإذن الأخلاق جذرها محبوب وهي مغروسة في فطرة الناس، فكل هذه الأخلاقيات الطيبة التي أمر الله بها عز وجل هي مقتضى الفطرة { **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** }

الحلقة (١٢)

هنا نعيد من أين تنبع الأخلاق؟ ومن أين تتكون في المجتمع؟

الإسلام كما أشرت بالحلقة السابقة يأمر بأشياء مركوزة بالفطرة،فإذا تأملنا الأخلاقيات التي جاء بها الإسلام، وجدنا أن بعضها هو تأكيد لما هو موجود، وبعضها شيء جديد يرفع بعض ما هو موجود ويلغيه، وبعضها يؤسس لأخلاق جديدة، ولذلك نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام لما جاء هناك من أخلاقيات العرب ما أُقر، ومنها ما هُذب، ومنها ما أُلغي، لماذا؟ لأن المراعى في هذا هو الأساس، وهو عبادة الله وحده، فالتأسيس على عبادة الله يهذب قيماً، وبعض القيم قد تكون أصلا من بقايا الدين، لم يمسها التغيير ولم يطولها التغيير، وبالتالي تبقى كما هي، وبعضها ارتبطت وإن كانت ذات أصل ديني وذات أصل فطري، إلا أنها ارتبطت بالواقع الاجتماعي المخالف لله، وبالتالي أقيمت على الحق مثل الكرم والشجاعة، على سبيل المثال الكرم يراد به الثناء على الشخص ومدحه، وهذا ليس في سبيل الله، ومثل الشجاعة التي يقاتل بها الرجل حمية عن قومه وليس حمية عن الله ورسوله، لذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل: (**الرجل يقاتل حمية ويقاتل حتى يرى مكانه في الصف أي ذلك في سبيل الله؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله**) فالنبي أقام هذه القيمة على ابتغاء وجه الله، ونبه إلى ذلك.

كذلك الثلاثة أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، الثلاثة نفر، يؤتى بهم فيؤتى بإنسان تعلم القرآن وعلمه في الظاهر، فيقال له ماذا عملت؟ فيقول تعلمت القرآن فيك وعلمته، فيقال له كذبت، إنما تعلمت ليقال عالم، فيسحب ويطرح بالنار، لماذا؟ لأنه لم يرد وجه الله والدار الآخرة بعلمه، وإنما أراد ذاته وتضخيم ذاته، وإظهارها، فهو عبادة ذات..

كذلك القيمة الأخرى: يؤتى بالرجل الآخر الذي غني وأنفق المال الكثير في سبيل الله في الظاهر، يقال له ماذا عملت؟ فيقول ما تركت سبيلاً تحب الإنفاق فيه إلا أنفقت فيه، فيقال له كذبت، إنما أنفقت ليقال جواد، وقد قيل، فيؤمر به ويسحب إلى النار، الثالث الذي هو شجاع، فيقول ما تركت مكانا ونحو ذلك إلا قاتلت فيك، فيقال كذبت إنما قاتلت ليقال شجاع وقد قيل، فيؤمر به ويسحب إلى النار،

فالنبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذا الحديث يبين للأصحاب **أن ارتباط الأخلاق أو الممارسات الخلقية بأساسها الإيماني، وأنها إذا لم تكن لله فلا قيمة لها، بل قد تضر الإنسان، وإن كانت قيمة إنسانية طيبة ومحبوبة عند الناس**، فالذي ينفق عند الناس ولم يرد وجه الله مصيبة، لكن في ظاهر الأمر شيء جميل، فهنا إذن بعض القيم أو الأخلاق بقيت بعضها على أساسه الفطري الطيب، وبعضها عدل وهذب، وبعضها ألغي إلغاء، لأنها ممارسات محرمة وسيئة طارئة على البشرية، لذلك إذا فحصنا ونظرنا في هذا الأمر وجدنا أن الأساس لمعين الأخلاق هو، الأخلاق الفطرية المركوزة في نفس الإنسان، وأن الأديان تأتي وتهذب هذه الفطرة وتنبهها إلى الحق، وتبعد عنها السوء ولذلك قال الله عز وجل

{ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** } فهذا هو الجذر، والدين والوحي هو المرجع في معرفة هذا الجذر الموجود في أنفس الناس،

فإذن **الدين والفطرة ومقتضى الحكمة والسنن هذه هي المصادر الحقيقية التي تتفق فيما بينها**، لأن **السُّنن** هي فعل الله سبحانه عادته في خلقه، وبالتالي لا يمكن أن تكون عادته في خلقه وفعله مناقض لما يأمر به سبحانه وتعالى، **والفطرة** هي من خلق الله سبحانه، **والدين** وحيه هو قوله وتوجيهاته للبشر، لذلك **هذه المصادر الأصلية للأخلاق**.

لكن هناك مصادر نلاحظها في حياتنا هذه المصادر **مصادر طارئة**،كالأعراف والتقاليد والعادات ونحوها، أو ما يسمى بلغة

العصر **الثقافة الجامعة**، هي تصنع أخلاق ولذلك نجد اختلاف في ممارسات المجتمع، فهذه الأخلاق المصنوعة إما أن تكون متوافقة مع الحق وطيبة، فتكون مقبولة، وإما أن تكون مخالفة للحق فتكون مذمومة، لأن منها ما يجري مجرى العادة، وما كان عاديا ولا مساس له بالدين فلا شيء فيه، إذن الإنسان قد يعمل عوائد وتكون عوائد طيبة، فيكون محمودة عليها، ويعمل عوائد سيئة وتكون سيئة فيكون مذموم فعله.

(من سن بالإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن بالإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)هنا ينبهنا إلى الجدل بين السنة والبدعة في حياة المسلمين، فكل ما نتجت بدعة فإنها تكون على حساب سنة، وكل ما أحييت سنة فتكون على حساب بدعة،

❖ وسائل اكتساب الأخلاق:

هناك وسائل كل الناس تمارسها، ولكن الميزة هو في التكامل من جهة، معناه استخدام وسائل متعددة تتكامل فيما بينها للوصول إلى الهدف، أما أن الوسائل موجودة فالبشر كلهم يعرفون هذه الوسائل ويمارسونها، لكن يأتي الإبداع من كيفية إعمال كل الوسائل في نسق متكامل، هذا من الأشياء المميزة.

فمثلا استخدام التعليم والتوعية،

التعليم بمعنى التلقين، لأن الإنسان قد يحتاج إلى التلقين في بعض الأمور، **والتعليم** بمعنى التثقيف بمعنى العيش في جماعة، لا بد أن يكون الإنسان يعيش في جماعة وفي بيئة جيدة وصالحة حتى ينتج ويكون صالحا، نتذكر حديث الذي قتل تسع وتسعين نفسا، ثم ذهب إلى أحد العباد لكنه لا يفقه أحكام الدين، وهنا خطورة من يتعبد الله على غير فقه، فجاء إلى هذا العابد وسأله: أنا فعلت كذا فهل لي من توبة؟

فقال له: تريد أن تتوب وقد فعلت هذا الفعل، فليس لك توبة، فأكمل به المائة، ثم ذهب ووفق لعالم فسأله فقال: من يحول بينك وبين التوبة؟

ولكن وجهه إلى شيء آخر إضافي، ليس فقط التوبة أن تتوب وأنت في بيئة فاسدة ستعود إلا ما شاء الله، لأن البيئة غلابة، ومؤثرة، وبالتالي كيف تستمر في التوبة، ليس المهم فقط بالتوبة وإنما المهم الاستمرار بالتوبة، لذلك وجهه إنك بأرض قومي قوم سوء، فاذهب إلى الأرض الفلانية ففيها قوم يعبدون الله أو شيء من هذا الكلام، **المهم أنه جمع له بين أمرين بين التوبة والبيئة**، ففتح الآفاق أمام نفسيته لكي يحرر ضميره من هذا الذي رام عليه وأثقل عليه، وتحرك وانتفض فجأة وأراد أن يتحرر من هذه الأعمال السيئة والتراكمات التي على ظهره، ففتح له باب التحرر من هذه الذنوب، وأتاح له فرصة الاستمرار على هذا الخير والنور وسعادة الضمير..

يعمل الناس على تربية أولادهم، منذ أن يستهل المولود إلى أن يكبر ويخرج للمجتمع، ثم هناك طريقة للمجتمع لكي يتعامل مع أفراده

هذه التكاملية في اكتساب الأخلاق، منها التلقين، مثلا كتلقين الصبي الصغير وتعليمه بعض الأشياء حتى لا يكون أخذه فقط تلقائيا، لأن الأخذ التلقائي يتشرب معه الطفل كل شيء الطيب والسيئ، والممارسات الأسرية فيها أخلاقيات طيبة وفيها أخلاقيات سيئة، والطفل لا يميز يأخذ كل شيء ويمتصه، لذلك كان التلقين جزاء من العملية التربوية للطفل .. يجب تلقين الأشياء حتى تحذف التلقائية من اللاشعوري، مما تلقاه الطفل من تربيته لا شعوريا، وهذه التلقائية هي إعادة برمجة لسلوك الطفل المبادئ الطيبة، وتنبيهه على التصرفات التي امتصها تلقائيا، وهي تصرفات سيئة لو استمرت معه في حياته،

فالتلقين والتعليم بوجه عام مثل تعليم التلاوة وتعليم القرآن حتى يستقيم لسانه عليه وهكذا **التوعية** أو ما يسمى في الإسلام **بالوعظ** تعاهد الناس بالمواعظ لماذا لأن طبيعة الناس يغفلون ويضعف الإيمان ويفتر، فيحتاج إلى تحريك، فتأتي **التوعية والوعظ**، لذلك كان الصحابة يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعاهدنا بالموعظة، لماذا؟ كلما يفتر الناس يحتاجون إلى تذكير، إلى تحريك الإيمان، لأن الإيمان يركد فيحتاج إلى تحريك،

كما أنه يحرك من قبل الفرد جددوا إيمانكم قولوا: لا إله إلا الله.

كذلك يحرك من قبل المجموع، بالمواعظ، بالتناصح، بالأمر بالمعروف والنهي على المنكر، كل هذه الأمور تكسب الأخلاق شيئا فشيئا، كذلك التدريب والتربية على الشيء، ليس فقط مجرد تلقين، أو تعليم، أحيانا تحتاج القيمة إلى وقت حتى يتدرب الإنسان عليها، ويتربى على هذا الشيء فينضبط سلوكه به، يحتاج إلى فترة لأن بعض المبادئ تحتاج إلى فترة حتى ينسجم معها السلوك ويرتبط بها، لأنها تحتاج إلى نوع من التعود، من سلوكيات الإنسان العادة، فالعادة تتحكم بالسلوك، فهنا لكي تهدم عادة وتبني عادة جديدة تحتاج إلى وقت حتى تدرب الإنسان عليها، ولا يكفي مجرد التلقين، نبغي أن يتحول هذا التلقين إلى ممارسة مرة ومرتين وثلاثة، حتى ينسجم الإنسان وتصبح عادته هذه العادة الطيبة، بدل عادته السيئة التي كان يمارسها.

من الوسائل: الترغيب والترهيب لأن الإنسان دائر دائما بين الرجاء والخوف، في كل أموره، ننظر في أمور الدنيا ننظر إلى التاجر مثلا نجد التاجر يشفق في أن يخسر ماله، وفي نفس الوقت يرجو أن يربح، كذلك الإنسان الذي يريد غرضا معينا، يرجو أن ينجح هذا الغرض، ويخشى أن يخفق، فالإنسان بفطرته بجبلته مجبول على هذين العنصرين، وهما يتحكمان في نفسه، لذلك جاء الترغيب والترهيب، **الترغيب** لانتشاله وإعلائه وإنهاض همته إلى الأعلى، **والترهيب** حتى لا تقعد به همته وتقعد به شهوته، إن لم يجذبه الترغيب ويرقيه جاءه الترهيب فساقه، وحذره وجعله يسير إلى الأمام، بدل أن ينتكس إلى الخلف.

كذلك من الوسائل في إكساب الأخلاق: المجاهدة، { الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} فالوصول إلى مرضاة الله ليست بالشيء السهل، لذلك لما قال واحد ما التقوى؟ ضرب مثالا بالواقع، قال هل سرت في طريق مليء بالأشواك؟ قال نعم، قال ماذا صنعت؟ قال شمرت واجتهدت، يعني اجتهدت أن أزيل الشوك عن طريقي وأمشي شيئاً فشيئا، طبعا إزالة الشوك فيها معاناة فيها تعب فيها مشقة فيها تركز، كل هذه الأشياء فيها، فهنا قال: إني شمرت واجتهدت، قال: كذلك التقوى، يحتاج لك إلى تركيز ووعي، لأن القلب مثل النهر المتدفق، الخواطر فيه بشكل مستمر،

إن لقلب ابن آدم لمتان: لمة إلى الملك ولمة إلى الشيطان، فالملك يلقي فيه بالخواطر الطيبة، والشيطان يلقي به بالخواطر السيئة، وهذه الخواطر مستمرة، ليجرب أحدنا ويصبر قليلا ويتأمل، فيجد أن الخواطر مستمرة عليه، ولو أراد إيقاف هذا التيار المستمر لم يستطع إلا ربما لحظات، أو بواسطة التركيز على شيء آخر يقطع عليه هذا التيار المتدفق، وإلا فالتيار مستمر، وبحسب استمرار التيار يحتاج الإنسان إلى استمرار مجاهدةً النفس والهوى،

كذلك من الوسائل اكتساب الأخلاق **القدوة الحسنة** وقد سبق بالحلقات السابقة الإشارة إلى قول الله عز وجل: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} وفي القرآن الكريم {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ} فهنا القدوة الصالحة، ومن هذا الباب ذكر الصالحين بالقرآن الكريم وسيرهم، وذكر الطالحين وسيرهم، حتى يستفيد الإنسان من الأخلاقيات الطيبة ومن السير الصالحة، ويتجنب السيئة.

وأيضا من الوسائل: **التدبر والتفكر** هذا التفكر أولا هو مجال لإجراء حسابات للنفس، التاجر الناجح من يجري دائما حساب، يجري حسابات ما مدى ربحه؟ ومدى خسارته؟

ويراقب الأسواق بدقة، حتى لا يفوته المكسب ويفوته الربح، ولذلك الأصل بالمسلم أن يكون متفكرا ومعتبرا وعارفا بوقته معرفة جيدة، وأن يكون يعرف ما ينفعه ويعرف ما يضره، ويجري حساباته، وبالتالي يعيد التصحيح بشكل مستمر، إذا كان عقله واع وفكره حاضر، وكان متدبرا، وكان واعيا، سواء التدبر في كتاب الله، أو في كون الله سبحانه وفي خلقه سبحانه وتعالى ..

فالمجتمع له آليات متكاملة في التعاون على البر والتقوى، وفي التناهي عن الإثم والعدوان.

هناك الخطوة الأخيرة أو الوسيلة الأخيرة لاكتساب الأخلاق **وسيلة الحماية**، حتى لا يستشري الفساد، فهناك التشريعات القامعة لكل تصرف سيء، التي ينفذها الحاكم على من يتجاوز الحدود ويستطيل على الناس ويسئ الأدب،

هذا إن لم تجدِ معه الوسائل التربوية، ولم يجدِ معه ضغط المجتمع، يأتي موقف السلطة أخيرا لكي تؤدبه وترده عند حده، وتحفظ سفينة المجتمع من أن تغرق بتنفيذ التشريعات التي تحول دون النخر في واقع المجتمع وإساءة التصرفات أو إساءة الأخلاق، هناك حد أساسي لا بد من الوقوف عنده، لا يمكن تجاوزه، خط أساسي لا يمكن تجاوزه، وهناك ما بعده خطوط مفتوحة لمن أراد التنافس، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

الحلقة (١٣)

❖ النظام الاجتماعي في الإسلام

انتهينا في الحلقة الماضية من الحديث عن النظام الأخلاقي في الإسلام وننتقل في هذه الحلقة إلى نظام آخر هو النظام الاجتماعي في الإسلام.

النظام الاجتماعي قد يطلق ويراد به :النظام السائد في مجتمع ما من جميع أوجهه.

وقد يراد به **ما ينظم العلاقات الاجتماعية الخاصة، أي في نطاق الأسرة وما يتصل بها.**

وهنا سنتناول النظام الاجتماعي من حيث: **الأصول والخصائص** نتناوله بوجه عام، ثم بعد ذلك نعرج على الحديث عن **نظام الأسرة في الإسلام** وما يتصل به بإذن الله.

بالنسبة **للنظام الاجتماعي في الإسلام:هو نظام راعى الوقائع، وبايع الاجتماع الإنساني، ووجه الناس لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة**، على ما سيتضح، لكن قبل أن أخوض فيه، أقول:

إن من الحقائق التي لا تقبل الشك، التي عرفت بالاستقراء والنظر في أحوال البشر، في أفرادهم وفي مجتمعاتهم:

أولا: أن الأفراد لا يمكن أن يعيشوا وحدهم

وإن شذ عن ذلك من شذ بصورة أو بأخرى، لكنه سيظل على صلة بالمجتمع بوجه ما، ويحتاج إليه بوجه من الوجوه، حتى ولو انفرد في عزلة أو خلوة، فسيعود بين آونة وأخرى للمجتمع، لأن الاجتماع ضروري للإنسان، إما لأن لديه المنزع النفسي أو طلب الأنس بالآخرين، وهذه حاجة فطرية، أو لأن لديه حاجات مادية يحتاج إليها، وبالتالي فهو يتجه إلى المجتمع لتلبية هذه الحاجات المادية أو الإنسانية.

فإذا كان الأمر كذلك فلا بد للمجتمع من نظام، لا يمكن أن يعيش المجتمع بدون سلطة تدفع بعضه عن بعض، ونزع

بعضه عن بعض، بواسطة نظام معين، مهما كان المجتمع بسيطاً، فإن له نظاما يحكمه ويضبط حياته وسلوكه؛ سواء كان هذا النظام شفهياً غير مكتوب ومتعارف عليه، كما هي أعراف القبائل، أوكان مكتوباً، وهذا المكتوب سواء كان وحياً أو كان مما دوّنه الناس وضبطوه، كالمدونات القانونية القديمة الموجودة، **كمدونة جستنيان** عند الرومان وغيره من المدونات القانونية، التي تنظم تصرفات الناس وسلوكهم.

المهم أنه لابد للمجتمع من نظام يضبط حركته، والأمر الآخر أن هذا النظام لا بد له من أسس وأصول ومصادر، ولا يمكن أن يتكون هكذا بين عشية وضحاها، وهذه الأصول والأسس إما أن يكون مصدرها الشرع، وإما أن يكون مصدرها شيء آخر.

ولها أثر في بناء القانون أو النظام نفسه، فتفريعاته العملية مرتبة على الأساس النظري للقانون.

ولذلك ينعكس أثره على من طبق فيه بخير أو شر، وقد أشار الله عز وجل إلى أثر الوحي المنزل لو عُمل به على الوجه المطلوب، ماذا سيحصل؟

ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، بمعنى إقامة شرع الله وهدي الله تضمن السعادة، وتحقق وفرة الإنتاج، وتحقق الخير العاجل والآجل.

❖ أسس النظام الاجتماعي في الإسلام

قائم على أسس صلبة تحقق السعادة للإنسان، منها:

أولاً: أن النظام تأسس على الإيمان بالله عز وجل، والدار الآخرة، والإيمان بالله والدار الآخرة هي الأساس الأول لهذا النظام، وهي سارية في أوصاله، مؤثرة في تطبيقه، فبحسب الإيمان وقوته يكون المسارعة إلى تطبيقه، وبحسب تطبيقه تظهر ثمرته، فهذا هو الأساس، ولذلك جاءت الأسس الأخرى متوافقة معه، ومؤدية إلى ما سيؤدي إليه هذا الأساس.

ثانيا: الأساس الفطري، بمعنى أن النظام الاجتماعي في الإسلام جاء موافقاً للفطرة وليس مناقضًا لها، قد يكون من الأنظمة ما يوافق الفطرة من جانب ويناقضها من جانب، ومن الفطرة محبة الناس لأنفسهم، ومحبتهم للمال، ولتحصيل الشهوات، فمثلاً: مما يتيح هذا الجانب وبتوسع:

النظام الرأسمالي: ولكنه لا يوافق الفطرة في جوانب أخرى، ولهذا دخل عليه النقص في جهة مناقضته للفطرة، ودخل عليه النجاح من حيث موافقته للفطرة،فما وافق فيه الفطرة آتى ثمرته، وما ناقض في الفطرة كان نقصاً فيه ونقصاً عليه، ولذلك من نتائجه الظلم وزيادة الفساد في الأرض، ونحو ذلك من الآثار السيئة التي نلحظها ونشاهدها ولا يغالط فيها إلا مكابر، فالإسلام ميزته: أنه وافق الفطرة حينما فتح لها أبواب تحقيق الشهوة، ولكنه ضبطها بما لا يؤدي إلى الظلم والفساد،فلم يمنع الإنسان من تحصيل شهوته،ولكنه وجهها توجيهاً سليماً لا يؤدي إلى الظلم، ووافق الفطرة الأساسية التي هي توحيد الله عز وجل والعدل والمساواة وغيرها من القيم الأساسية التي تحبها الإنسانية وتميل إليها فطرة، ووافق الفطرة في الرغبة في تحصيل الشهوات ونحوها، ولكنه ضبط هذه بتلك فكان أساساً عظيماً، في حينما فعّلت الفطرة تفعيلاً جيداً وقوياً يأخذ بالإيجابيات ويدفع السلبيات.

فهذا الأساس الفطري، لم نره عند الآخرين، فإما أن يكون انطلاق مع جانب من جوانب الفطرة ومناقضة لجانب آخر، وبعكس هذا من رأى مصلحة طبقة على طبقة، أو فئة على فئة، فرأى أن يلغي التفاوت في المجتمع الإنساني، وهذا مناقض ومضاد للفطرة لا يمكن أن يحصل، وكأنه أراد أن يجعل الجنة على الأرض، وحتى الجنة فيها تفاوت وإن كان الناس لا

يشعرون بتفاوت بعضهم على بعض، بباب إكرام الله لهم بنزع الغل من قلوبهم إخوانا على سرر متقابلين.

المهم أن الأنظمة إن لم تكن من عند الله: لابد أن يتطرق إليها نقص من ناحية أسسها التي قامت عليها، سواء كان النقص – وهذا النقص الأساس- جاءها من عدم القيام على الإيمان بالله، وعدم الانطلاق من وحيه وهديه، أو جاءها من ناحية أخرى كمناقضة الفطرة، إما مناقضة كلية وإما مناقضة جزئية.

والإسلام بحمد الله جمع ذلك كله، فالفطرة تقتضي التفاوت، لماذا؟

لأن الناس قدرات، ليسوا موهبة واحدة، وليسوا على مستوى واحد من الذكاء والقدرة وغيرها، فلكل ميوله، ولكل مواهبه، ولكل قدراته، وبالتالي لا يمكن جعل الكل على نمط واحد أو مستوى واحد، وقد أشار الله عز وجل إلى هذا التفاوت في كتابه قال: { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}، فالتفاوت أمر لازم، هو نتيجة جبلة الإنسان، ونتيجة اختلاف القدرات والمواهب والميول ونحوها، ولكن صحيح أن الإنسان قد يتدخل فيظلم أخاه الإنسان فيزداد التفاوت، وقد يحرم صاحب المقدرة والكفاءة من الفرص حينما لا يكون هناك تكافؤ في الفرص، وقد يكون، لكن نحن لا نتحدث عن هذا الجانب، نتحدث عن الجانب الفطري، لا الجانب المكتسب والذي تدخل فيه الإنسان، فالجانب الفطري نتيجته التفاوت وليس التساوي التام في طلب المعيشة وفي اكتسابها..

ولذلك جاء النظام الاجتماعي مراعياً في الإسلام، فكما أنه مؤسس على الإيمان بالله، فكذلك قائم على اعتبار الفطرة في التشريعات والتنظيمات التي جاء بها.

مثلاً من مراعاة الفطرة: التيسير على الإنسان في أحوالٍ بحسب أحواله، فللمريض أحكام، والمسافر أحكام، وللفقير شيء يخصه بحيث يجوز له الأخذ مثلاً من الزكاة، في حين أن غيره لا يجوز له، وعلى الغني أحكام وإلى آخره من المراعاة، هذا التفاوت أو الاختلاف الذي يكون نتيجة جبلة الناس واختلاف هذه الجبلة فيما بين الأفراد، قوة وضعفاً وإبداعاً وعدم إبداع ونحو ذلك من الأمور، نحن هنا لا نتكلم عن الجانب الثقافي وتحكمه في الإبداع وغيره، نحن نتكلم عن الجانب الفطري الجبلي، هذا هو الأساس الثاني من أسس النظام الاجتماعي في الإسلام.

الأساس الثالث: السنن الإلهية في الخلق : لو قلنا السنن الإلهية وأطلقنا لدخل فيها الوحي والفطرة ودخل فيها كل الأبعاد، دخلت فيها لماذا؟ لأن سنن الله أنواع منها:سنن دينية، ومنها سنن في الخلق، وسنن في الأمر، وسنن في الخلق، والسنن الدينية أو سنن الدين غير سنن الخلق، ولكن التوجيهات التشريعية جاءت مراعيةً لسنن الله عز وجل في خلقه، هذه السنن التي في الخلق كلما كان هناك اعتبار لها كان التشريع أحرى بأن يجنب المجتمع الضيق والضنك والحجر، وكلما كان أكثر قدرة على تفعيل القوى والطاقات وتسخير ما أعطاه الله عز وجل للإنسان في هذا الكون من منافع، فالمنافع لا يستطيع الإنسان أن يسخرها إلا إذا اكتشف الطريق إلى تسخيرها، لذلك كان العلم بالسنن له أثر عظيم في استفادة الناس باجتماعهم، بهذا نكون قد أنهينا الحديث عن أساسين من أسس النظام الاجتماعي في الإسلام، **الأساس الأول هو:الأساس الإيماني، والثاني: أساس الفطرة، أما الثالث** فقد أشرت إليه لكن سأتحدث عنه إن شاء الله في الحلقة القادمة.

الحلقة (١٤)

من المعلوم أن الخلق أجراه الله على نظام دقيق،يمكن الانتفاع منه، فلو كان الكون غير متسق أوغير منتظم، لم يستطع الناس الاستفادة منه، لأنهم لا يمكن لهم التنبؤ بما يكون، والنتائج غير مضمونة، لكن لما كان هناك انتظام في الكون أصبح الإنسان قادراً على معرفة القانون، إذا فُعلت الأسباب الفلانية يترتب عليها النتيجة الفلانية مثلا، بقدر ما يعرف الإنسان هذه السنن يكون أكثر قدرة على التحكم والسيطرة في الحياة الاجتماعية، وكما أنه حصل للإنسان فتوحات للتحكم والسيطرة في المجال الطبيعي والكوني؛ فكذلك حصل له فتوحات في التحكم في السلوك الإنساني، سواء كان سلوك الأفراد أو المجتمعات، عن طريق التعرف على هذه القوانين، التي سماها الله عز وجل السنن، فالله اقتضت حكمته أن يجري أفعاله وفق نظام معين، قال تعالى {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}..

والحديث النبوي أشار إلى سنن المجتمعات وما يظهر فيها، منبها المسلمين إلى هذا التشابه في سلوك المجتمعات، والذي يمكن من خلاله أن يستفيدوا منه في تقويم سلوكهم وضبطه، وتجنب المزالق التي انزلق فيها الآخرون، ولذلك ليس بمستغرب أن يأتي الحديث كثيرا عن بني إسرائيل في القرآن، هذا الحديث ليس تعريف ببني إسرائيل فقط، وإنما توجيه للمسلمين لكي يعرفوا سنن انحراف المجتمعات الدينية، المجتمعات الدينية تنحرف بالرغم من وجود الوحي والهدى.

ما أسباب الانحراف؟ هل لذلك الانحراف سنن؟

يَعجب المرء أحيانا مما يري من التركيز على دراسة أولئك الأقوام من قبل المسلمين، وكأن ما حصل منهم هو خصائص لهم لا تتعدى غيرهم، كأن يظنوا أن هذه خصائص لليهود أو النصارى أو لغيرهم، لا ليست المسألة هكذا، إنما المسألة أن الأنفس البشرية تجري عليها القوانين نفسها، وبالتالي المجتمعات الدينية تنحرف عن الهدى، ولذلك الانحراف سنن يجب أن تدرس وتعرف حتى لا يقع المسلمون في انحراف أولئك الأقوام، وهذا ما يفهم من توجهات الكتاب، ومن توجهات النبي صلى الله عليه وسلم، لما تأتي آية في سياق الحديث عن بني إسرائيل قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، هنا حديث عن واقع معين حدث في التاريخ، لكن هذا الواقع قابل للتكرار من قبل من لديه كتاب، من لديه وحي، قابل لأن يقع من المسلمين فيأمر بالبر وينسى نفسه وهو يتلو الكتاب، وهكذا في سائر الصفات التي وردت في أولئك الناس، هي تنبيه من الله لنا حتى لا نقع فيما وقعوا فيه، نتعرف على السنن ونحذر من الوقوع في ذلك، في حديث النبي صلى الله عليه وسلم (**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن؟**) وفي حديث آخر (**لتأخذن أمتي أخذ القرون قبلها شبرا شبرا وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا يا رسول الله فارس والروم؟ قال من الناس إلا أولئك**) هذا تنبيه من الرسول عليه الصلاة والسلام على السنن الاجتماعية للمجتمعات الحضارية، وعلى السنن الاجتماعية للمجتمعات الدينية، حتى ينتبه المسلمون من الانزلاق إلى اتباع دون تعقل وحكمة وبصيرة، وحتى تكون استفادتهم من الآخرين استفادة واعية وليست استفادة غافلة، ذلك هو فعل السنن، وذلك هو تأثيرها،

كما جاء في الحديث (**الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده ما قاله بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**) لما قالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فهنا تنبيه من النبي صلى الله عليه وسلم للوعي بالسنن والحذر من الوقوع فيما وقع فيه الآخرون من انحرافات، لا يعني وجود القرآن والسنة أن المسلمين مبرؤون من الوقوع في سنن الآخرين ومشابهتهم، فذلك أمر يقع كما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم، هنا النظام الاجتماعي قد راعى هذه السنن..

الأمر الآخر الذي جاء **النظام مؤسس عليه ومراعي له تحقيق المصالح ودفع المفاسد**، وهناك مصالح أخروية، وهناك مصالح دنيوية، وقد راعى الإسلام تلك المصالح كلها في توازن عجيب، أقام مصالح الدنيا على مصالح الآخرة بجعل الدنيا مطية للآخرة، فحرم ما يضر بها وزجرها عنه، وأباح لها ما ينفعها ودفعها إليه.

لذلك قسم علماء الإسلام المصالح المراعاة: **إلى ضرورية، وحاجية، وتحسينية**، لا يمكن أن يتم البناء إلا بمراعاته هذه المقاصد، فأساس البناء كله لا يقوم إذا ضاعت **المقاصد الضرورية**، التي **هي حفظ الدين والعقل والنفس والنسل والمال**، فلو أن **المال** لم توضع الضوابط لحفظه لضاعت مصلحة الناس في هذا الجانب، لحدث خلل وفساد كبير في المجتمع، بقدر اختلال هذا الجانب ينعكس ذلك على وضع المجتمع، كذلك لو استهين بجانب حفظ **العقول** ماذا سيترتب من الدمار والخراب؟ كذلك حفظ **النسل** لو لم تعمل الضوابط له لحدث خلل كبير في المجتمع، وحفظ **النفس** أيضا، لو أُهدرت النفوس وسهل إهدارها وقتلها لحدث فساد كبير، وحفظ **الدين** الذي به قوام المجتمع وقوام النظام الأساسي، فكانت هذه مصالح ضرورية.

هناك **المصالح الحاجية** التي لو منع الناس منها لدخلوا في حرج شديد، ولا يمكن أن تكون حياتهم سعيدة، فلو فرض أنهم منعوا من **البيع والشراء** أونحو من ذلك، ماذا سيحصل من المفاسد في حياتهم والضيق والحرج؟

كذلك **المقاصد التحسينية** التي تجعل الحياة حسنة وجميلة، **كبر الوالدين وإفشاء السلام وإطعام الطعام** ونحو ذلك من المحاسن التي تجعل الحياة جميلة، ذلك أن الإسلام راعى إلى جانب العدل راعى الإحسان، فلابد من الإحسان في الحياة، فلا يكفي أن نعيش الحياة بشكل فيه استقامة فقط فلا بد أن تكون جميلة وحسنة، وهذا ما يفعله الإسلام إذ أنه يجمع بين العدل والإحسان، ومن تأمل في أوامره ونواهيه وجد أن التوحيد والعدل والإحسان تسري في كل جزئيات الدين وفي كل الأوامر والنواهي والتصرفات، ولو أن الناس أقاموا الدين على وجهه لكانت حياتهم جمال وبهاء وسعادة وبشرى، ولكن الناس يعيشون على الأرض، تظهر الشهوات، يظهر التنافس، تظهر الأحقاد، والمحن، والمصائب، فبالتالي هذه تؤثر فلا يعمل النظام عمله الكامل، فلو عمل عمله الكامل لكانت الحياة كما أشار الله عز وجل (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم).

الجانب أو الأساس الآخر أساس الإنسانية، فالنظام الاجتماعي هو النظام العام الذي يدخل في كل أبعاد الحياة وكل أنظمتها كالنظام الاقتصادي والنظام الإداري والسياسي ونظام الدعوة والاحتساب ونظام العبادة ونظام الأخلاق وغير ذلك، هنا نتكلم عن الأسس العامة.

أيضا **أساس الإنسانية**، هذا من الأسس التي روعيت، هذا التشريع تنزل ليهدي الإنسان، وقد راعى طبيعة الإنسان، فالإنسان حر ومكرم ومسؤول، ولو لم يكن بهذا الشكل لما جاء التشريع له، لأنه يتحمل المسؤولية، وعاقل يعي ما يكلف به، وحر غير مستعبد، **ومكرم** قال تعالى { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ } ليس فقط المسلمين، { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا }، وتساويه من حيث الأصل **الحرية** قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}.

إذن ما يعرض للإنسان من عوارض في حياته ليس سببا لتفضيله على الآخر، من العوارض الماضي في التاريخ أن الإنسان يتعرض للرق، فتعرضه للرق لا يهدر إنسانيته، حينما جاء الإسلام كان الرق على أشده..

ومما يعرض للإنسان: الفقر والغنى، وأيضا المرض فيكون معاقا ومشوها ونحو ذلك، فكل هذه العوارض لا قيمة لها في التفاضل بين الناس، أساسا من حيث إنسانيته،

أما التفاضل عند الله بالتقوى، والتقوى مرجعها إلى الله ومردها إليه، لا يعلم القلوب إلا هو،

وأما التفاضل الدنيوي الذي سبق الإشارة إليه عند الحديث عن الفطرة قال تعالى {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}

هذا التفاوت في القدرات والرزق والعمل لا يجوز من خلاله التفاوت بين البشر، بمعنى الترفع بعضهم على بعض، واعتبار بعضهم أفضل من بعض، فهذا لا يجوز، وإنما هي مواهب خص الله بعضهم دون بعض بها لكي تكتمل حياتهم، لو لم يوهب البعض زراعة أو صناعة أو تعليما أو سياسة أو عسكرية أو نحو ذلك لكانت الحياة صعبة، كلهم سيكونون بحالة ..

ومن المعلوم من استقراء المجتمعات يبين أنها على مستويات ثلاث:

١. المستوى العام وهو أكثر عددا.

٢. المستوى المتوسط وهو أقل عددا.

٣. من يكن في القمة،

من له موهبة القيادة في أي جانب من الجوانب، وهؤلاء قليل، الذين يكون لديهم المواهب القيادية، لذلك نجد القياديين محدودين، والغير قيادي أكثر عددا، والعامل أكثر أيضا وهكذا، فإذن هذا الشيء لا يجيز للمسلم أن يتفضل بموجبه على الغير، إنما كل بحسب قدرته وطاقته يخدم ويكتسب، فلا شيء في تفاوت الكسب لأنه مرتبط بتفاوت البذل والقدرة، وهذا في الشيء المباح التفاوت فيه، ولكن التفاوت العنصري بمعنى امتداح إنسان على حساب إنسان بموجب تحصيله الدنيوي أو بموجب نسبه أو علمه أو غير ذلك ،أن يرى نفسه أفضل الآخرين أو يتباهى عليهم لا، فالفضل مرده إلى الله، قد يكون من لا يعلم علما أفضل عند الله لما علم الله في نفس هذا الذي أوتي علما من الكبر أو الغرور أو نحو ذلك من الأمور التي تعرض للنفوس في دواخلها وتضره عند الله، فجعل الله التفاضل إليه فقال تعالى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، لذلك كان على رأس البشرية الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، عند الله وليس عند الخلق يصنفون، فالله هو الذي يصنفهم ويفضلهم كما يعلم من ذواتهم.

هذه خمس أسس ١/ الإيمان ٢/ الفطرة ٣/ السنن ٤/ المصالح ٥/ الإنسانية.

كل منها يثمر إثمارا عظيما في الحياة الإنسانية، ويؤدي إلى خير البشرية، لو أن الناس راعوها تمام المراعاة كما وجههم إلى ذلك الله تعالى، لكن الإنسان يغلب عليه هواه، لذلك حينما يستغني أي كان نوع الاستغناء يظهر عليه الطغيان إلا من رحم الله، ولا يمكن للإنسان أن يشعر بالاستغناء إلا إذا غفل عن الله، أما إذا كانت مراقبته لله حاضرة في قلبه فلا يشعر بالاستغناء ومفتقر إلى الله في كل لحظة من اللحظات، فلن يكون مستغني إلا بالحق، لكن لا يكون مستغني بنفسه، فإذا شعر بالاستغناء بنفسه فقد طغى، قال تعالى {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} استغنى بقوته ونشاطه أو ماله أو بسلطانه أو نحو ذلك من الأمور، عندما يشعر الإنسان أنه استغنى بالباطل بأي نوع من أنواع الباطل فيتحول إلى الطغيان وسيطرت عليه نفسه وأطغته وأعجبته، لكن المفترض بالمسلم أن يكون استغناؤه بالحق، وأن يشعر بافتقاره إلى الله في كل لحظة من لحظات عمره، دائم المراقبة لقلبه لا يغفل عن ذلك طرفة عين ولا أقل ولا أكثر.

الحلقة (١٥)

أشرت في نهاية الحلقة السابقة إلى أنني سأذكر **بعض الآثار المترتبة على هذه السنن.**

فبالنسبة للإيمان فنجد أن آثاره عظيمة ولا يمكن استقصائها ولكن نشير إلى بعض منها:

١- **أن الإيمان هو الرابط بين المسلمين جميعا،**

فهو يقيم علاقتهم على **الأخوة في الله** قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}، فاجتمعوا على الأخوة في الله الناس، قد يجتمعون على الأخوة في المصالح، الأخوة في الرحم، أو الأخوة في جانب الوطن، الأخوة في الجنس، أو الأخوة في إقليم، أو غيرها، لكن هذه الأخوة محدودة ليست باطلة، لا، لكنها أخوة محدودة بحدها، فأخوة النسب معتبرة شرعا، أن فلان أخو فلان من أبيه وأمه، لكن ليست هي الحاكمة على كل التصرفات، وليست هي المؤثرة في كل التصرفات، تؤثر في بعض الأشياء ولا تؤثر في كل شيء، لكن الأخوة الإيمانية تسري كما يسري الإيمان، وعلى أساسها أقام النبي صلى الله عليه وسلم مجتمع المدينة حينما آخى بين المهاجرين والأنصار وليس فقط تكفلا ماديا ولكن كان هناك رباطا إيمانيا عظيما حقق شيئا آخر، فالمهاجرين طالت صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة ١٣ عاما،

٢- كذلك منها **التكافل والتكامل** بين المسلمين والمؤمنين (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**) لأنهم جسد واحد، الجسد إذا تأذى شيء منه أحس الجسد بالألم بسبب هذا الرباط، فالجهاز العصبي المتكامل في الإنسان الذي يحدث أو يشعر الإنسان منه خلاله بالألم ..

٣- **تصويب المجتمع بشكل دائم، والمحافظة على ثقافته أن تُحل وهو مبدأ النصيحة** كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**) ..

هذا النصح معناه الصدق مع الله، الصدق مع رسوله، والصدق مع الأئمة، والصدق مع العامة،هذا من المبادئ العظيمة مبدأ النقد الاجتماعي الذي يستهدف وصول الحقيقة ولا يستهدف الإيذاء ولا الإسقاط ولا الإفساد ولا التنافس، إنما يقصد الكمال والصواب والرقي والمحافظة على ثقافة الكل وعلى دين الكل ..

٣-**مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** الذي هو واجب على كل مسلم بحسب قدرته (**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**) والإنسان إما أن يكون المنكر في دائرة سلطانه فبالتالي يغير بيده، أو أذن له السلطان أن يغير بيده فيغير بيده، وليس ذلك لأي إنسان، ولو كان كذلك لربما دخل الحياة فساد عظيم، فقد يستغل الإنسان هذه المبادئ للإضرار بالآخرين، فلابد أن يكون منضبطا ومنظما لاسيما التدخل باليد، هكذا إذن إن كان في دائرة سلطانه كان التغير باليد سواء كان سلطانه في بيته أو دائرته أو ما كان في دولته، أو كان ليس في دائرة سلطانه لكنه يستطيع تغير المنكر بلسانه، فإذا لم يكن في سلطانه ولم يكن لديه قدره من القول لمانع من الموانع، أو ما يترتب على ذلك من المفاسد الكبار بالنسبة إلى التغيير، فيلجأ إلى كره ذلك الفعل المخالف لما يحبه الله ويرضاه،

فإذن هذه المبادئ العظيمة: **الأخوة التكافل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التناصح** مبادئ عظيمة تتأسس على الإيمان بالله، فلولم يكن المجتمع مؤمنا لما حصلت فيه هذه المبادئ المرتبطة بإيمانه.

مراعاة الفطرة من آثارها :الإشباع، إشباع حاجات الناس بحيث لا يدخل في حرج أو ضيق أو ألم أو شدة، وإنما إشباع حاجاته ورفع البؤس والأذى عنه، وتحقيق التوازن في حياته، كل ذلك من آثار الفطرة.

وأما **مراعاة السنن** فلها **آثار عظيمة** منها:

١. **تقدم الحياة.**

٢.استقامة الحلول الموضوعة للمجتمع حينما تكون مؤسسة على السنن.

٣. حصول الفاعلية والقدرة على استغلال ما أعطي هذا المجتمع، سواء من قدرة ذاتية أو من قدرات مواد خام، أو غيرها، فاستعمال السنن أو الارتباط وإقامة الحياة على السنن، تؤدي إلى الفاعلية والإنتاجية، وظهور الثمرات بوجه صحيح وبوجه فعال.

من ثمار مراعاة الناس : **تدفع الضر عن الناس، وتدفع التفاوت فيما بينهم أو بغي بعضهم على بعض**، فلو فرضنا أن المصالح لم تراعَ على وجه صحيح وعلى وجه تراكبي، لظهر في حياة الناس الاختلال وعدم التوازن، لأن تقديم ما ليس ضروري على الضروري يظهر في المجتمع الهدر فلو أن إنسانا مثلا مريض بحاجة إلى العلاج والذهاب إلى المستشفى لكي يدفع عن نفسه شدة المرض، فنجده مثلا يصرف نقوده التي أولى بها علاجه يصرفها في شراء الحلوى والتفكه ونحو ذلك هذا اضطراب، قدم غير الضروري على الضروري، فيحدث في حياته اضطراب يفوت اللازم والمهم ويعجل بالشيء الغير مهم الذي يمكنه الاستغناء عنه ..

من ثمار مراعاة الانسانية : عندما يراعى أساس الإنسانية **فإن السعادة والجمال تكون طابع ذلك المجتمع، وانتظام أموره واندفاع الشر عنه، لو فرضنا المجتمع فيه العنصرية ستخرج أثر هذه العنصرية مُرة على هذا المجتمع، إما في التفاوت فيما بين أفراده وفئاته ..**

في حين أن مراعاة أساس الإنسانية **تنتج إيصال الحق لذويه**، وكذلك **العدل فيما بينهم، وقيام كل إنسان بواجبه ومراعاته، هذه من آثار هذا الأساس العظيم.**

فبقدر ما يكون المجتمع المسلم مطبقا وعاملا تظهر هذه الخصائص والصفات فيه، وبقدر ما يكون منحرفا يظهر ضده.

فمن خصائصه أولا: الالتزام بالدين الإسلامي أو بالشرع

وطبعا هذا الالتزام كما جاء الحديث عن النبي صل الله عليه وسلم لم يكن على درجة واحدة، وإنما سيتفاوت المجتمع المسلم كما قال عليه السلام (**بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ**) وقال عليه السلام (**إن لهذا الدين إقبالا وإدبارا**) وغير ذلك وقال في الحديث الآخر الذي حذر فيه المسلمين من تهافت الأمم عليهم وطمعهم فيهم قال (**توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها**) الصحابة ظنوا أن القضية قضية عدد، سيكونون قليلين وبالتالي يطمع الناس فيهم، فقالوا أمن قلة بنا يا رسول الله يومئذ؟

قال: (**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ينزع الله منكم المهابة من صدور عدوكم ويلقي في قلوبكم الوهن**) قالوا فما الوهن يا رسول الله؟ قال: (**حب الدنيا وكراهية الموت**) ..

فحينما نقول خصائص المجتمع المسلم نقصد حينما يكون ملتزما ومنضبطا ومتقيا لله، وليس في كل حالاته،

فمنها كما قلنا أن من أبرز سماته:

١- أنه مجتمع ملتزم بشرع الله مستسلم لدين الله عامل به.

٢- ومن صفاته انه مجتمع متسامح والتسامح فيما بينهم (رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا قضى وإذا اقتضى) وكذلك التسامح بعدم الإضرار بالآخرين أو الحرص على الإضرار بهم، فمعلوم أن الشرع أدب المسلمين بآدابه، وأذن لهم في رد اعتداء من اعتدى عليهم، وأمرهم بنشر الدين بإحسان، ولا يكون فيه اعتداء أو تجاوز، إنما بإحسان، فهذا التسامح نتيجة الإحسان، ينعكس على كل تصرفات المجتمع أو تصرفات أفراده.

٣- متناصح، وقد أشرت إلى النصيحة من قبل.

٤- متراحم كذلك (مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم).

٥-كما أشرت أيضا مجتمع جاد، بمعنى مسئول بأن يقدر المسئولية، ولا يكون فيه مجال للوهن أو التقاعس عن أداء المسئولية، ولذلك من كان بهذه الحال كشف الله وضعهم من المنافقين الذين كانوا في وقت رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين منهم من يطلب الإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم {يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}

فهي تأمر المسلم أن يكون مسئولا مهما كان موقعه في المجتمع، الرجل والمرأة والخادم كلهم لابد أن يكونوا على مستوى المسئولية (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

٦-كذلك هو مجتمع آمن لأن المؤمنين يأمن بعضهم بعضا، ومن لا يؤمن فقد جاء التحذير في الحديث (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قالوا من يا رسول الله قال من لا يأمن جاره بوائقه)، فالإيمان أمان لأن منطلق المسلم في تعامله مع الآخرين عهد الله وشرطه، بينه وبين إخوانه المسلمين عهد الله وشرطه، فعهد الله عليه ألا يؤذي مسلما ألا يخونه ألا يغدر به ألا يغشه ألا يفعل ما يضر إخوانه المسلمين.

٧-كذلك تسوده المساواة: ما المقصود بها؟ المساواة: مستوى القيام بالواجبات وأداء الحقوق، بمعنى لا يكون إنسانا لا تفرض عليه واجبات، كلهم على حد سواء في الواجبات، وكلهم عليه حقوق، تتفاوت ربما الواجبات، لكن المقصود أن كل من عليه واجب لابد أن يؤديه، وكل من له حق لابد أن يأخذه وهكذا.

٨- الأمر الآخر الطاعة فيه لأولي أمره، لماذا؟ سنتكلم عن ذلك إن شاء الله.

الحلقة (١٦)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، كنت في نهاية الحلقة السابقة قد أشرت إلى خصائص المجتمع الإسلامي المنصبغ بتلك الأسس المشار إليها، وذكرتها على سبيل الإجمال:

١.التزامه بالشرع

٢.وتسامحه ٣.وتناصحه ٤.وتراحمه ٥.وجديته وفاعليته

٦.وأمنه ٧.وسيادة المساواة بين أفراده ٨.وطاعته لأولي أمره.

وكل هذه الصفات منبثقة متأسسة عن الإيمان بالله عز وجل ومراعاة سائر الأسس الأخرى؛ لأن هذه الأمور كلها مما يحقق مرضاة الله سبحانه وتعالى ويدفع عن المسلمين السوء، هذه خصائص هذا المجتمع لكن

❖ ما الخصائص التي للنظام الأخلاقي؟

من خلال الأسس السابقة التي تم عرضها في عدة حلقات،

يمكن أن نتلمس هذه الخصائص ونلحظها ويمكن أن نجملها فيما يأتي:

أولا: مراعاة الأخلاق، فالمجتمع الإسلامي ليس مجتمع أوامر أو نواهي أو قانون فقط ينفذ ويسري على الأفراد، ولكنه مجتمع تربية وتزكية لأفراده وبناء لعلاقاته وتنفيذ لأحكام الله فيه، فإذن هناك تكامل لا ينفك بين الجانب الأخلاقي والجانب

الاجتماعي، فالإسلام يهدف إلى صنع المجتمع الطاهر النظيف، الصالح والمفيد لكل فرد من أفراده، والنافع للإنسانية.

لذا نلاحظ أن النظام الاجتماعي جاء بآداب معينة وأخلاقيات معينة لابد من ممارستها عند إقامة العلاقات الاجتماعية، وأخلاقيات سيئة حُذر المسلمون منها وظهورها في مجتمعهم وبينت آثارها السلبية، ولم يكتف بذلك بل رتب على من يفعلها عقوبات زاجرة ورادعة، هذا من جانب، كعقوبات القذف والزنا وشرب الخمر ونحوها من الأمور التي تؤدي للإضرار بالمجتمع، وهناك وسائل وقائية أمر بها الإسلام لكي يكون المجتمع طاهرا ونظيفا، فمن المعلوم أن العلاقة بين الرجل والمرأة فطرياً علاقة انجذاب، المرأة تنجذب إلى الرجل، وينجذب الرجل إلى المرأة، فطرة وجبلة، ولذلك شرع الإسلام من الآداب العامة التي تتأدب بها المرأة ويتأدب بها الرجل لما يحول بين خرق السفينة أو إفساد المجتمع أو تلويثه بما يضره ويفسد علاقاته، فحد حدودا وبين آداب وأخلاق لابد من مراعاتها، لماذا؟ حماية للمجتمع كما قلت من أن ينهار أو أن يفسد.

أقام العلاقات من جانب آخر على المودة والمحبة والتناصح والتكامل،

ثانياً: الالتزام بالعدل :في كل ما يأتيه الإنسان ويذره في نفسه وفي علاقاته مع الناس في القول.

العدل في القول {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} فعدل في القول وفي الشهادة..

وفي الكتابة {وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} كذلك {وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ} الآية ..

كذلك في الوزن والقسط عندما يزن الإنسان لابد أن يكون وزنه بالعدل ..

{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}

كذلك في الحكم والقضاء {وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}..

وكذلك في الحساب {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}

وفي النهي أيضا في مقابل الأمر بالعدل في كل دوائر الحياة

جاء النهي عن الظلم، والنهي عن الظلم أمر بضده وهو العدل، لأن كما قلت في بداية الحديث عن النظام الخلقي أنه كفٌ أو نهي أو أمر ؛ فالنهي: يعتبر هدم للأخلاقيات السلبية، والأمر: بناء لها.

وما من ثقافة من الثقافات إلا ونجد فيها الهدم والبناء؛ **الهدم للسلبي، والبناء للايجابي،** لا يمكن أن تقوم ثقافة فاعلة وإيجابية ما لم تحتوي على الحدين معا على الهدم والبناء، لذلك جاء الإسلام بهدم ما كان سيئاً ومفسد ومؤدي للفساد، وجاء بانياً لكل ما كان صالح ومصلح ومؤدي للصلاح.

ثالثاً: من خصائص هذا النظام العناية بالأسرة

الأسرة تعتبر أساسا من أساسات المجتمع فهو في حقيقته عبارة عن مجموعات، أفراد متجمعون في أسر وهذه الأسر تجمعوا فكان منهم المجتمع، فالمجتمع ينحل إلى هؤلاء الأفراد وعلاقاتهم، إلى مجتمعات صغيرة هي هؤلاء الأسر، فلما للأسرة من أهمية في بناء الشخصية وفي تكاملها في الارتقاء بها كان الاهتمام بهذه الأسرة اهتماما عظيما..

أول ذلك الاهتمام بناء الأسرة، الأسرة لها لحظة بناء، ولها استمرار، وقد يكون لها نهاية، إما نهاية طبيعية **بالموت** وبالتالي تحلل و انفكاك إلى مجموعات أسر أخرى، أو **بالطلاق** والنهاية عند هذا الحد، وإذن اعتنى الإسلام في بناء الأسرة في إنشائها وفي استمرارها وفي مصيرها..

تجلى ذلك أولا في الإشباع في الإذن بالزواج، وهذا هو بداية تكوين الأسر، فمن المعلوم حاجة الإنسان إلى الجانب الجنسي وحاجته إلى الولد، وتطلعه إلى الخلود والاستمرار، ولا يكون ذلك إلا بتخليد ذكراه عن طريق أولاده، فهي نزعة في الإنسان أنه يبحث عن الامتداد، وكذلك حاجة و غريزة يرغب في إشباعها، ليست غريزة جنسية فقط وإنما حاجة نفسية..

فإلى الجانب الجنسي الجانب النفسي، الذي أشير إليه في القرآن الكريم قال الله عز وجل {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} وقال عز وجل {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}

وقال سبحانه {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} فهذا الجانب النفسي الإنسان بحاجة إليه الرجل بحاجه إليه والمرأة بحاجه إليه، فهي حاجات فطرية راعاها الإسلام تأسيساً على ما سبق ذكره من أن الفطرة أساس من أسس النظام الاجتماعي في الإسلام، فعلى حين حرّم الجانب السلبي من ممارسة الفطرة بدون ضوابط، أباحها في نطاق تؤدي فيه الفطرة ثمراتها وتحقق إشباعه، فكنت أشرت في الحديث عن الفطرة أن انطلاقها بدون قيود سيكون له أثر سلبي..

وأن تقييدها تقييد غير صحيح ومضاد سيكون له أثر سلبي، وأما توجيه الفطرة بما يحقق إشباعها بشكل سليم ويدفع مضارها هذا هو الجانب الجيد والطيب، وهو الذي عمله الإسلام، فلم يقيدها تقيدا يضر بها، ولم يطلقها على عوالمها، وإنما وجه الفطرة توجيها سليما يؤدي كما قلت للإشباع والكفاية والإبداع، ولذلك روعيت عوائد فيما يتعلق بإجراءات الزواج، وسنت أمور قد يكون بعضها مما جرت به العادة ..

فمثلاً الإسلام لم يأتِ بالخطبة: الخطبة موجودة قبل الإسلام إذا أراد الإنسان الزواج خطب المرأة من وليها، أو قد يخطبها من نفسها، إنما لا يمكن أن يتم الزواج بدون طلب، ولذلك هذا أمر فطري وأمر طبيعي ومن عوائد المجتمعات، إنما قد يكون الإسلام أدخل بعض الأمور والآداب على الخطبة بحيث تؤدي ثمرة إيجابية، إذا كان فيها نوع من السلبيات يزيلها وايجابيات يبقي عليها.

فمسألة الخطبة أمر أساس عند الناس عموما، ولذلك راعى الإسلام هذه العادة الطيبة وكان على الإنسان أن يطلب من يرغبها بالمعروف، يعني بالطرق المعروفة التي تعارف عليها الناس، فليس هناك صورة محددة، لكل مجتمع عوائده، فما دامت في إطار مراعاة كرامة المرأة والآداب العامة فهي كذلك، بعد الخطبة يأتي دور بناء هذه الأسرة عن طريق ما شرعه الإسلام العقد، أيضا التعاقد موجود عند الناس ليس خاص بالإسلام، إنما الإسلام أعطى صيغة معينة في التعاقد، وبين شروطا لابد من الوفاء بها، وأركانا ونحو ذلك، لكن لايعني أن العقد إنما هو في الإسلام وحده، فالأمم الأخرى لديهم موجود عقد الزواج، فلذلك يعطونه قداسة ويعقدونه في الأماكن الدينية في الغالب، لكن مع العصر الحديث سمي العقد المدني وأصبح يعقد خارج الإطار الديني، لكن بما أن الإسلام لا يفرق بين الدنيا والآخرة فصورة العقد هي في ظاهرها صورة مدنية فيها إيجاب وقبول وتعاقد حر بين الطرفين، يكون الممثل فيه للمرأة وليها، وقد يكون في بعض المذاهب تمثل نفسها، وهكذا يتم بهذه الصورة، أما ما يستحدث من تنظيمات فهي لتحقيق المصالح، كتسجيل الزواج في الدوائر الإدارية والهيئات الإدارية، هذا من الأمور التي يقررها النظام للناس ضبطا لأمورهم وأحوالهم، وغيرها، وهو إذا قرر عليهم يكون واجب التنفيذ، لأن فيه تحقيق مصالحهم، فما أمروا إلا بشيء يحصل لهم به المصلحة والمنفعة، وفيه تحقيق غاية من غايات الإسلام ضبط النسل، كان الناس يتعارفون بحسب.. خلاص اشتهر أنه فلان بن فلان لأنهم عرفوه بالاشتهار وبتواتر بينهم، لكن ميزة التسجيل أن التسجيل المدني أنه يسجل باسمه وتؤخذ وثائق معينة كالصورة ونحوها، وتسجل وتدون ويعطى رقما يضبطه، يفرق بينه وبين غيره إلى غير ذلك من الأمور، التي استحدثت لضبط أنساب الناس وضبط علاقاتهم، وهذه تسجيلات رسمية.

بعد ذلك **الإسلام شرع حقوقا للزوج وحقوقا للزوجة**، طرفي الأسرة، وأعطى كل منهما حقوقاً معينة لابد من إيصالها، وكذلك حد حقوقا لفروع الأسرة: الأولاد سواءً كانوا بناتاً أو أولادا، لهم حقوق وعليهم واجبات، وكذلك الزوجة لها حقوق وعليها واجبات، وكذلك الزوج له حقوق وعليه واجبات، هذه الأمور نظمها الإسلام بشكل دقيق يرتبط بطبيعة العقد، فالعقد بين الرجل والمرأة فيه نوع من تقييد حرية المرأة، لذلك أشار المصطفى عليه الصلاة والسلام وأوصى كثيرا بالمرأة، لأنها مظنة الظلم قبل الرجل وأوصى كثيراً، قال (**إنهن عوانٍ عندكم**) شبههن بالأسيرات لأنها ارتبطت بهذا العقد ترتب عليه مصالح معينة، مقابل أمور معينة أيضا هي تحصلها، وبالتالي حذر الإسلام كثيرا من استغلال الرجل لحقوقه ومن ظلمه لامرأته.

من حقوق الزوجة المهر: أن يقدم الزوج لها مهرا يحدد غالبا بما هو متعارف عند الناس، بحسب الوضع الاجتماعي والوضع المادي وغيره يرتبط بهذا الشيء، وإن كان الشرع حث على التيسير (**أكثرهن بركة أيسرهن مهرا**) فأوصى وحث على هذا الجانب حثا كبيرا تيسيرا للحياة ودفعا للإضرار بأطراف المجتمع، فالمهر هو بداية الحياة الزوجية حينما يتعاقد مع الزوج يقدم لها مهرا لها هي بذاتها، تتصرف فيه، فإن أذنت لوليها بالتصرف وإلا فالمهر حق لها.

* كذلك **من حقوقها النفقة:** أن ينفق عليها بالمعروف، أيضا الإسلام جعل مساحة لأن الناس تتفاوت، والمجتمعات تتفاوت، فبالتالي لو فرض شيء معين قد لا يستطيع الإنسان الوصول إليه، وقد يكون الإنسان قادرا على إعطاء أفضل منه، فيمنع، وبالتالي جعل هناك ميزانا مفتوحا وميزانا معروفا، وبالتالي السائد بين الناس بما لا يضر هو الذي ينبغي أن يكون مستوى حد الإنفاق مثل على الزوجة وعلى الأولاد، ولذلك مثلا حين يرفع للقاضي مشكلة أو قضية كمطالبة بالنفقة، يفرض القاضي غالبا ما يتناسب مع وضع ومستوى المرأة الاجتماعي، فلها ذلك، وقد نص الفقهاء على بعض الأمور مثل أن يوفر الخادم لمن يُخدم مثلها، وهكذا، بالتالي فتح الإسلام المجال ليكون العمل في الإنفاق ونحوها والعشرة الحسنة كلها بالمعروف.

* **فمن حقوقها إلى جانب الإنفاق السكنى:** لابد أن يؤمّن لها السكن، فمهما كانت غنية لا يحق للرجل أن يأخذ من مال امرأته شيء مهما كان، إلا بطيب نفس منها، أو إن لم تطيب نفسها بشيء لا يجوز على الإطلاق.

* الأمر الاخر**العشرة بالمعروف** وهذا عنصر مهم، فالإسلام أعطى العشرة بالمعروف، لابد أن يحصل نواقص ومنغصات في الحياة الزوجية لأن الناس بشر يتعارضون للألم والفرح والسرور والغضب والحزن وغيرها، فحينما تحصل عوارض يتحمل بعضهم بعضا، لكن لا تكون خلقاً للزوجة وخلقاً للزوج بأن يضار أحدهما الآخر، ويتعمد إيذاءه أو جرح مشاعره أو تقليل من مكانته أو احتقاره أو تجاوز الآداب العامة في الكلام معه وفي معاملته، كل هذه الأمور مذمومة ولابد أن تكون العشرة بالمعروف، فهناك أمور تعارف عليها البشر تعتبر تجاوز للهدف، وتجاوز للأخلاق العامة، تجاوز للذوق، منها أمور يعتبرها المجتمع إخلالا بالعشرة الحسنة، فكلما كان فيه هذا الجانب القادح والمنقص للعشرة بالمعروف فهو مذموم ويجب أن يجتنبه الطرفان كلاهما، ليس فقط الزوج وكذلك الزوجة.

* كذلك **الإشباع لها:** فيما تتطلب من الرجل عادة، هذا شرط أساسي لابد منه، إذا لم يحصل لها هذا الأمر كان لها حق المطالبة بالانفصال عنه، فهذا من الأمور التي يتم العقد عليها، بل إن الفقهاء جعلوا العقد على النكاح، فبالتالي ما لم يحصل لها كفايتها من هذا الجانب فهنا سيكون إنقاص من حقوقها التي على الزوج أن يفي بها.

الحلقة (١٧)

اهتم الإسلام بالأسرة اهتماماً كبيراً وقد بدأت بالحديث في الحلقة السابقة حديثاً موجزاً مقتضباً لذلك أفضّل أن أعود مرة أخرى إلى هذه الخصيصة نظراً لأهميتها وأبسط القول فيها بعض البسط لما لها كما قلت من أهمية.

أولاً: مظاهر اهتمام الإسلام بالأسرة..

يظهر هذا الأمر من خلال أيضاً اتفاقه مع الأسس الأساسية للنظام الاجتماعي التي أشرت إليها أو ذكرتها في بداية الحديث عن النظام الاجتماعي وأعود وأذكر بها التي هي:

١. الإيمان ٢. الفطرة ٣. السنن ٤. المصالح ٥. الإنسانية

هذه هي العناصر الأساس أو أسس المجتمع الكبير أيضاً يظهر أثرها من خلال اهتمام الإسلام ببناء الأسرة أو المجتمع الصغير.

فأساس هذه الأسرة البناء على الإيمان، لذلك يذكر الله عز وجل الزوجة بأساس هذا الزواج وهو الميثاق الغليظ، وهي كلمة الله وشرطه، فعلى أساس كلمة الله كان الاستحلال، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (**استحللتم فروجهن بكلمة الله**) وكذلك في القرآن الكريم {**قَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**} فتأسيس هذا الأمر على الإيمان يجعل الالتزام بمراقبة الله فيه وفي كل جانب من جوانبه أمراً حاضراً ومهم حتى يشعر كل طرف في هذه الأسرة بالمسؤولية، ولاسيما الطرف القائد لها والذي هو الزوج هو المسئول الأول الذي له القوامة، فيشعر بثقل المسئولية، وأنه في ذلك مسئول أمام الله عز وجل بموجب هذا العهد والشرط الذي تم بموجبه هذا الزواج، فتأسيسها على الإيمان يعطي لها أهمية كبيرة ويبين مكانتها ورعاية الإسلام لها وحرصه على أن تكون متسقة، وأن تكون مستوفية لما يحبه سبحانه وتعالى ويرضى.

❖ **الأمر الآخر توافقها مع الفطرة في جميع الجوانب:**

سواءً في مسألة حاجة الفطرة إلى الإشباع النفسي والجسمي، وكذلك حاجة الناس إلى الترابط و التناصر بالحق، وليس بالباطل، فالإنسان يحتاج إلى من يعينه وإلى من يأنس به وإلى آخر ذلك، فهذا الزواج هو السبيل إلى هذا الأمر، سواءً في داخل الأسرة الصغيرة تعاون الزوج والزوجة وتعاون الأبناء وتعاون الأخوة وتعاون الأخوات، أو الاتصال وتوثيق عرى المجتمع عن طريق النسب والمصاهرة والتراحم، لكن الإسلام قيّد هذا بأن يكون بالحق وليس بالباطل، فليس كل قريب ينصر بمجرد أنه قريب، وإنما إذا كان محقّـاً أو ينصر بالحق

أيضا مما يلفت الانتباه من اهتمام الإسلام بالأسرة:

أنه فصل أحكامها: فصل أحكامها من حيث بناء الأسرة.

وكيف تبنى؟ وكيف يتم الزواج؟ وما الذي يجب في العقد؟ وما الذي يشترط فيه؟ وإلى آخره وكيف ينبغي أن تتم الحياة؟ وتفصيل الحقوق والواجبات، وتفصيل العلاقات والمسؤوليات، وتفصيل طريقة هدم الأسرة إذا اضطر الزوجان إلى هدمها أو إنهاء العلاقة، وقبل ذلك مسألة قيادة الأسرة وإحكام قيادتها والآداب التي يجب أن تتحلى بها الأسرة وغير ذلك، هناك تفصيلات كثيرة جداً نجدها في أحكام هذه الأسرة، وكيف تتوارث إذا مات أي من أطرافها، وإلى غير ذلك من التفصيلات الدقيقة والأحكام المُبيَّنة الواضحة لهذه الأسرة، مما يدل على أهميتها البالغة، وكما قلت إذا صلحت الأسر كان لها دور كبير في صلاح المجتمع، وإذا انحلت الأسر أثرت في انحلال المجتمع، فتأثير الأسر أكبر من تأثير الأفراد، الأفراد لهم تأثير ولكن تأثير الأسر أكبر، لما في الأسرة يتوفر فيها السلطة ومن التربية ومن الإعاشة والقيادة ومن غير ذلك من الأمور التي تجعلها

مجتمعاً صغيراً له ثقافته الخاصة المؤثرة في بناء الفرد وفي إصلاحه، إلى غير ذلك، فهذا مظهر من مظاهر اهتمام الإسلام بالأسرة.

❖ **الأمر الآخر بناؤها على أمر المساواة بين الزوج والزوجة**

فـ {لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} والاختلاف إنما جاء بناءً -إذا وجد اختلاف- فهو بناءً على الميزان الأساس الذي توزن به كل جوانب الحياة، بل كل الأمور، والذي هو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين في الحكم، والتسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين في الحكم كما قال عز وجل {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} و{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} فإذن المتماثلين يسوى بينهما في الحكم، والمختلفين يفرق بينهما في الحكم، هذه هي سنة الله عز وجل، لذلك اجتمع في الزوج والزوجة جوانب متفقة كان فيها التساوي، مثلاً جانب الإنسانية وجانب التساوي في العبادة ونحوها..

هناك أمور لا مجال للتفريق بين الذكر والأنثى فيها..

وهناك اختلاف بين الذكر والأنثى فهما سواء في العنصر الإنساني، وفي الخلق، وهما مختلفان في جوانب فيما أعدا له، فليس الرجل وحده كامل وليست المرأة وحدها كاملة، وإنما كل منهما مكمل للآخر، لا ينبغي أن يتفاخر أو يظن أنه كامل والمرأة ناقصة، أو أن المرأة تشعر بالدونية تشعر أنها ناقصة والرجل كامل، كلاهما مكمل للآخر، فسنة الله عز وجل بناها في هذا الكون على الزوجية، لابد للزوجية للتكامل، فهذا الاختلاف والافتراق هو لتحقيق التكامل، فوفق السنة المرأة مكملة للرجل، والرجل مكمل للمرأة ولا يمكن تفضيل أحد النوعين تفضيلاً مطلقا، وكمالاً مطلقاً، قد يكون فيه جوانب فضل في الرجل باعتبار تحمله للمشاق وقدرته على ذلك، وأمور هيأ لها، وتفضله المرأة من جانب آخر في الحنان والرقة والقابلية للتربية والصبر على الأولاد ونحوها، فهنا هي تفضل الرجل من هذا الجانب والرجل يفضلها في هذا الجانب، لذلك تفضلها في جانب رعاية تربية الأولاد والصبر على مشقتهم ونحوها من هذه الأمور والحمل والولادة ونحوها، لما لها من فضل في هذا الجانب، كان لها تقديمها على الوالد في المقام وفي المكانة، النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه رجل وقال له من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك، فإذن الأم فضلت بثلاثة أمور أو ثلاث مرات قبل الرجل سبقته في هذا الجانب، لماذا؟ لأن عنصر الأمومة أساس في بناء الشخصية الإنسانية، وهي التي تعطيها الجانب العاطفي جانب الحب والحنان والرأفة والرحمة إلى آخره، هذا الجانب يظهر عند المرأة أكثر، فبالتالي هي تفضل الرجل في كونها هي مصدر العاطفة في حين مصدر الرجل العقل أكثر من هذه الناحية، ولذلك هو يتحكم في مشاعره أكثر مما تتحكم المرأة، هذا بشكل عام للجنس بشكل عام، ولكن قد نرى من أفراد النساء من يفقن الرجال، ومن أفراد الرجال من يفقن النساء حنانا ورقة وعاطفة، ليس الأمر حتميا في كل أفراد الجنس، وإنما نتكلم على العموم..

ومن هذا المنطلق كان إعطاء الرجل القوامة في الأسرة لأنه في الغالب أكثر قدرة على القيادة من المرأة، لا يعني أن من النساء من لا يحسن القيادة أكثر من الرجال قد يكون حاصل وارد، لكن الغالب والحكم في الشريعة يأتي على الأعم الأغلب وليس على الكل، واستغراق الأفراد..

هنا إذن قلنا: بناؤها على المساواة إلا ما فيه اختلاف انطلاق الميزان الشرعي الذي هو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين،

ففرق الله عز وجل بينهما فيما افترقا وسوى فيما هما مستويين فيه، لذلك قال عز وجل {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ

وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} **فبالاختلاف كانت الدرجة وبالتساوي كانت** {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ }

فجانب التساوي روعي، وجانب الاختلاف روعي، وأعطي كل جانب حقه، وهكذا شرع الله قائم بالعدل الدقيق والميزان الذي لا يتخلف، فكلما كان الناس آخذين بهذا الشرع كلما استقامت الحياة وسعدت.

قد يفتن بعض المفتونين فيما يلاحظونه من قيم الحضارة المعاصرة، من حيث محاولة التسوية التامة بين الرجل والمرأة في كل شيء ..

ولو عرفوا حقيقة الأمر لأدركوا ما يجب، وأن الخير كل الخير فيما قضى الله به عز وجل، وليس في تجارب البشر التي هي ناقصة وقابلة للكمال شيئاً فشيئا، فهؤلاء الغربيون كانوا على حال ثم انتقلوا إلى حال، وربما لو طال بهم الزمان لعادوا إلى حال أخرى غير الحال التي عليها، والآن نلاحظ عندهم الآن بما يسمى بمبادئ الحداثة وظهور حركة الأنثوية والتمركز حول الأنثى، وأن الفرق بين الرجل والمرأة هي فروق ثقافية صنعها المجتمع، وأنه ليس ثَمَّ إلا جنس واحد، لا نقول ذكر ولانقول أنثى، فيقولون إنما الأنثى صارت أنثى لجعل المجتمع لها أنثى، أو بالثقافة أنها هي التي وصفتها أنثى، وذاك وصفته بأنه رجل في حين أنهما سواء، فهذا خلط ومغالطة وحتى لواقع الخلق وللمحسوس، فهذه خلقت بطريقة، وهذا خلق بطريقة ولم يأتِ عبثاً من جعلهما ذكراً وأنثى.

فالنظام الكوني قائم على التكامل بين النوعيين، ولو نظرنا هناك الإيجابي والسلبي الموجب والسلب، وهكذا كل أمور الحياة، فهؤلاء الآن يتنكرون لهذا الخلق للخلق نفسه ويطرحون هذا الشيء بقوة، ويحاولون أن يفرضوه على العالم، حتى هؤلاء الغربيون ليسوا على سنة واحدة ولا مستوى واحد بلغوه، وما زالوا يغيرون ويغيرون كلما اكتشفوا شيئاً جديداً كلما انتبهوا إلى أشياء جديدة بدؤوا يغيرون، لكن العيب الذي يقعون فيه عيب التعميم والإطلاق.

أولا: حينما يصلون إلى شيء يتجاهلون الماضي وكأنما الشيء الجديد الذي انتقلوا إليه ماسحاً للماضي بأكمله، مع أن الجديد يغتني دائماً بالقديم ويكمله ويطوره إلى شيء جديد..

ثانياً : تجاهلهم للإنسانية وتجاربها واعتمادهم لتجربتهم فقط، وكأنهم كاملون، وينبغي أن يكون الناس تبعاً لهم في كل ما وصلوا إليه، هذا ما لا تقبله العقول، والإنسانية نفسها لا تقبل أن تكون تابعة ذليلة لأمة من الأمم، تتبع تجاربها وما توحي به أو تقول به، ولذلك ما زاد امتداد الثقافة الغربية عالميا ما زاد الثقافات الأخرى إلا إحياء ونماء ونشاطا ومقاومة، لماذا؟ لأنها تريد أن تفرض نموذجاً واحد أو تجربة واحدة خاصة لمجتمع معين، تريد أن تمدها على نطاق العالم بزعم الإنسانية وبدعواها، في حين أن الأساس أو ما ينبغي أن يخضع له:

أولاً : الجانب السنني الذي هو لله سبحانه وتعالى في خلقة، وما يسمونه هم القوانين الطبيعية والقوانين النفسية والاجتماعية،

الجانب الآخر: الجانب الديني الذي هو قول الله عز وجل العليم، بالبشر الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فتكامل السنن الدينية مع السنن الكونية هو الذي يمكن أن تكون فيه إسعاد الإنسانية، ولذلك لما امتد الإسلام لم يمتد لأن الناس دانوا للعرب أو تبعوا العرب لذات العرب لأن العرب في جزيرتهم وما تعبهم أحد، بل كانوا أذلة، لكن الناس دانوا لله، ولولا أن المسلمين ذهبوا ينادون الناس أن يخضعوا لوجه الله وأن يدينوا لله لا أن يدينوا لهم ولا يتبعوهم، لما تبعهم الناس وما دانوا لهم، وما استقر الإسلام في نفوس هؤلاء الناس يمنه ويسرة، ولما رضوا به، وهجروا ما كانوا عليه، فإذن اقتناع هؤلاء الناس بدين الله و اتباعهم لرضوان الله، هو الذي جعلهم يسلمون لهذا الشيء، فحين يريد مجتمع معين أن يقفز على التاريخ وأن

يخضع الأمة وأن يخضع الأمم وأن يخضع الناس لتجربته الخاصة فهذا أمر غير صحيح،

ولذلك يحاولون أن يشككوا الناس في أديانهم وقيمهم، بل ويشككوا الناس في الله عز وجل وفي أحكامه وفي شرعه الذي شرعه وفيه السعادة والخير والنماء، ويجب أن يفرق هنا بين ما هو من اجتهاد الناس واجتهادهم في فهم الدين، وبين الدين ذاته، فما كان من الدين فهو الحق الذي لا محيد عنه، ما كان من اجتهاد الناس قابل للنظر مرة أخرى، وبحسب آفاق الناس وفهمهم تتجدد الأفهام، وبحسب تجدد الوقائع تتجدد الوقائع تتجدد الأقضية والفتاوى، وهكذا

هذا أمر آخر لا يجب أن نخلط بين الثابت والمتغير:

فالثابت لا يتقادم مع الزمن، لأنه وجهه الحق الذي لا يتغير، والمتغير وجه إلى الزمن المتغير وجه إلى المتحرك المتطور، وبالتالي يعاد لاجتهاده مرة أخرى كلما استجد قضايا جديدة، وهكذا إذن لا يجب أن نخلط في الشرع بين الأمرين هذه قضية أردت أن - أو سنح الكلام فيها انطلاقا من هذه النقطة وتعقيبا عليها، بهذا أكون قد ذكرت وبينت مجال اهتمام أو مظاهر اهتمام الإسلام بالأسرة.

وأنتقل إلى جانب آخر وهو:

← لماذا اهتم الإسلام بالأسرة؟ أو ما مقاصده من تكوينها

أولاً: هناك أمر مهم وهو أن يكون هناك استمرار للنوع الإنساني، حتى لا ينقطع، وكيف يستمر هذا النوع؟ لا يمكن أن يستمر إلا أن يكون بطريقة صحيحة، فلو ترك الناس وأهواؤهم لم يكن هناك مثلاً أمور زواج، وإنما ظلوا أقرب للناحية الحيوانية الفوضوية بدون تنظيم وأحدث فيهم من الأمراض والبلاء والفساد والفوضوية وعدم معرفة الأنساب وغيرها، فإذن كان **الأمر الأول بقاء النوع الإنساني أمر ضروري، وهو مقصد من مقاصد الاستخلاف في الأرض،** لكن هذا المقصد لا بد أن يتحقق بناءً على أمر وهو أن يكون منظماً ومرتباً..

إذن **أن يكون بقاء النوع منظماً ومرتباً ومنتجاً إنتاجاً صحيحاً،** فهذا هو المقصد الأول من إيجاد الأسر أو من سنن الزواج الذي تتكون منه الأسر، وليس وجود الزواج كما يريد البعض أن يقول هو من أجل استغلال المرأة، ومن أجل استعمالها وإيجاد أيدي عاملة،

فنشوء الأسر نحن نعود فيه إلى كتاب الله وسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله عز وجل بين أن هذه النشأة منذ أن وجد الإنسان، النوع الإنساني على الأرض { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا }

فإذن الأسر بدأت: مع بداية الجنس الإنساني بعهد الله وميثاقه وشرطه، فهذا هو المقصد الأول من مقاصد التشريع:

أن يتم بناء أو استمرار النوع الإنساني بطريقة صحيحة سليمة دافعة للفوضى، محققة للغاية على وجه صحيح بما يحبه الله ويرضاه.

الحلقة (١٨)

❖ **المقاصد الأساسية من تكوين الأسرة في الإسلام:**

١. المقصد الأول بقاء النوع الإنساني:

بقاء النوع الإنساني بوجه سليم يدفع الفساد ويحقق الصلاح، فبقاء النوع الإنساني مترتب على النكاح، وليس النكاح المشروع، بل قد يكون نتيجة النكاح فاسد أو النكاح غير المشروع، فسيستمر الناس ويستمر وجود الإنسان، لكن الله قد

شرع للبشرية النكاح ومنعهم من السفاح، ولذلك كان من المقاصد أن يبقى النوع الإنساني بطريقة مشروعة وبطريقة تدفع المفاسد وتحقق المصالح، فكان أن شرع فيها الزواج ورعيت هذه الأسرة الرعاية التامة، وكيف يتحقق هذا الأمر بطريق صحيح، حتى يكون استمرار النوع الإنساني استمرارا خيرا وطيبا.

٢. المقصد الثاني هو تكثير الأمة المسلمة:

فإن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)، وبيّن أن كل نبي أوتي من المعجزات بما مثله آمن الناس، وأنه عليه الصلاة والسلام أوتي القرآن، وقال (وإني أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)،

فإذن إكثار الأمة الإسلامية أمر مقصود ومطلوب، ولا يغُـرنّ المسلمين ما يقوله الآخرون عن خطورة تكاثر النسل وغيرها من القضايا، فتكاثر النسل ليس مضرا في ذاته، وإنما المضر هو عدم تخطيط الناس لحياتهم وتحقيق الكفاية لهم مهما كان عددهم، فالأرض لا تضيق بالناس، وإنما تضيق حينما يكون هناك سوءٌ في التوزيع، أو سوء في توزيع الناس لكفايتهم واستثمارهم لكفاية الأرض، وفي توجيهم لطاقتهم فالعلة هنا، وليست العلة في الكثرة، لأن الإنسان والمجتمعات لا تدري ما يعرض لها، وقد يعرض لها طارئ فيذهب الجم الكثير من أفردها، وبالتالي حينما تكون قليلة فإنها تكون معرضة للخطر، لكن حينما تكون كثيرة فإن تعرضها للخطر أقل، بمعنى أن تعرضها للهلاك والانقراض والانحسار أقل من ذلك، لذلك من المجتمعات ما تكون موصوفة بالشيخوخة حينما يكون كبار السن فيها أكثر من صغار السن، ومن المجتمعات ما تعتبر مجتمعات فتية حينما يكون فيها صغار السن أكثر من كبار السن، فهذه فرصتها في الحياة وفي النماء أكثر وأقوى إذا وجهت طاقتها وأحسنت استغلال قدراتها ومواردها، فإذن ليست القضية في جانب إكثار النسل أو إقلاله كما يزعم الآخرون أو أصحاب النظريات المتشائمة مثل مالتس وغيره، وإنما القضية في تدبير الناس، كيف يدبرون وكيف يستثمرون كفايات أرضهم ومعطيات طبيعتهم.

٣. تهذيب الغرائز وإشباعها بطريقة سليمة تدفع سلبي الفطرة وتبقي على إيجابيها:

حيث أن الفطرة لو تركت وشأنها بدون تنظيم وبدون ترتيب وبدون توجيه، فإن الإنسان طبيعته أن يمد عينيه إلى ما في يد غيره، لو أعطي الناس بدعاواهم لادَّعى رجال دماء رجال وأموالهم، ولكن الفطرة تحتاج إلى توجيه وضبط، ولذا كانت هذا الأحكام فيما يتعلق بالأسرة مدعاة أو طريق لتهذيب الغرائز وإشباعها بطريقة صحيحة سليمة، تجعلها منتجة وفعالة، بدل أن تكون مدمرة وفوضوية مفسدة.

٤. المقصد الرابع من مقاصد الاهتمام بالأسرة: توفير البيئة الثقافية المناسبة لبناء الشخصية الإنسانية:

الإنسان لا يعيش إلا في مجتمع، ومن خلال هذا المجتمع تنبني ثقافته وشخصيته، كما قال عليه الصلاة والسلام: (كل مولد يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، حينما يقول عليه الصلاة والسلام يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ليس المقصود أنه لا يكون إلا بهذه الأحوال،

وإنما ضرب مثلا بالمجتمعات الدينية التي حول مجتمع الجزيرة آنذاك، فالفرس لديهم الدين المجوسي، وفي بلاد العرب وحولها في بلاد الشام وجود النصارى واليهود..

فالأسرة عبارة عن مجتمع صغير، فإذن لابد من محيط ثقافي صغير يتربى فيه الطفل قبل أن ينضج ويخرج للمجتمع الكبير أو للمحيط الثقافي الكبير، فهذا توفير البيئة الثقافية المحققة لهذه الحاجات حتى تخرج الشخصية سليمة ومتوازنة لا تخرج معقدة ولا مريضة ..

فهذا من مقاصد تكوين الأسر، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الطفل: (كل مولد يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإما شاكرا وإما كفورا) فهذا الحديث بين لنا المقصود من الحديث السابق وهو أن الطفل يكون بحسب البيئة التي يكون فيها، فإن كان في بيئة شاكرة كان شاكرا، وإن كان في بيئة كافرة كان كافرا، لأنه سيتلقى تلقائيا هذه الأمور وسيتربى عليها وهى التي ستحدد اتجاهه وعقائده وعوائده حتى يكبر، فربما بعد نضجه ينطلق إلى منطلقات أخرى أو يحصل على تحولات أخرى، فشأننا الآن بشأن البداية قبل أن يبدأ في الخروج للمجتمع، فإذن من مقاصد تكوين الأسرة إيجاد المحيط الثقافي الأصيل السليم الذي يمكن أن يشبع حاجات الطفل جميعا، وأن يربيه التربية السليمة ويبني شخصيته البناء الجيد.

٥. تماسك المجتمع ودفع الأضرار عنه:

لاشك أن من الفطرة أن الأقارب يتواصلون و يتناصرون، سواء كانت القرابة الأصلية عن طريق الرحم، أو تقارب الناس بالمصاهرة والنسب، فيصبح بينهم نوع من التقارب ونوع من التناسق ونوع من التناصر.

وبالتالي بناء الأسرة يؤدي إلى ترابط الأسر وتماسك الأسر، بحيث يصبح المجتمع أشبه بالشيء المتماسك مع بعضه ويزداد بناؤه قوة وإحكاماً بحسب ترابطه وتواصله، سواء تواصل الأسر عن طريق التعارف والتواد والتراحم، أو بسبب القرابة أو بسبب المصاهرة أو بغيره، فإذن هذه الأسر عبارة عن وحدات، فكلما كانت هذه الوحدات متقاربة كان المجتمع بلا شك أكثر تماسكا، هذه بعض المقاصد الأساسية من تكوين الأسرة في الإسلام.

بعد ذلك ننطلق إلى بناء الأسرة، أنا قلت أن الإسلام اهتم بها بما في داخلها من علاقات ومسؤوليات ونحو ذلك، ثم ما بعد البناء، لو اضطر الناس إلى تفكيك هذا البناء كيف يفككونه؟ ومن الذي بيده هذا التفكيك؟ و هل هناك عوامل لحفظ الأسرة من التفكك؟ وغيرها من القضايا، على كل قد لا تتسع الحلقات للحديث عن كل هذه الجوانب، لكن نحن نحاول الإلمام والإشارة بقدر الاستطاعة.

❖ مراحل بناء الاسرة :

المرحلة الأولى: الخطبة: حينما يريد الرجل أن يبني أسرة يبدأ بالمرحلة الأولى وهي خطبة المرأة، يسبق الخطبة شيء ويكون معها شيء، ويشترط لها شيء، مما يسبق الخطبة **توصية الإنسان بأن يحسن الاختيار**، فمن المعروف أن الأمزجة تختلف، والطبائع تختلف، والأذواق تختلف، وهناك أمور كثيرة جدا تتحكم في اختيار الناس، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى الأمور التي عادة الناس يختارون بموجبها، قال: (تنكح المرأة لأربع لدينها ولمالها ولجمالها ولحسبها فاظفر بذات الدين تربت يداك)، فإما أن يكون الإنسان معياره الجاه، وإما أن يكون معياره الجمال، وإما أن يكون معياره المال، وإما أن يكون معياره الدين، في الاختيار، فهذه أربع معايير أشار لها الحديث الشريف ولكنه وجَّه إلى المهم والجانب الذي يمكن أن يكون عامل استقرار وعامل صلاح وعامل بناء للأسرة، والذي به قوامها واستمرارها وخيرها وخير ما ينتج منها من أولاد أو بنات، الذي هو الدين العاصم بإذن الله من كل شر، والدافع إلى كل خير، ولذلك قال في النهاية (فاظفر بذات الدين تربت يداك)..

وكأنما النبي عليه الصلاة والسلام يوجه للمعيار الأساس فلا يخدعنك الجمال ولذلك قال فعسى حسنهن أن يرديهن، فقد تكون جميلة وتكون مفتخرة، ليس هذا قدحاً في الجميلات، ولكن قد يكون هذا، لأن الإنسان عادة إن لم يكن بالله كان بنفسه، فإن كان بنفسه طغى واغتر..

وقد قال تعالى { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } فالإنسان قد يطغى بجماله، وقد يطغى بعلمه، وقد يطغى بماله،

وقد يطغى بقوته، حينما يستند إلى ذلك الشيء يستند إلى الباطل ويركن إلى ما بنفسه، لكن حينما ينظر إلى ذلك الشيء أنه نعمة من الله وفضل من الله عليه فإنه لا يزال في شكر و لا يزال في خير، فإذا كانت الجميلة شاكرة لله على جمالها فهي قد جمعت الخير من أطرافه، جمعت الجمال والشكر والدين والخير، ولكن أقول كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم فعسى، يعني أنه قد يكون الجمال داعياً للطغيان لأن من كان لديه شيئا يرى أن استغناءه به فالعادة أنه يطغى، كمن كان عنده مال ولم يكن الحق حاكما له فإنه يطغى، وكذلك القوة والنشاط فيظلم ويبطش وقد يكون غيره، إذن كلام النبي صلى الله عليه وسلم هو على السنة والعادة والأعراف والعوائد التي يجري الإنسان بحسبها أوحسب طبائع الناس، وكذلك من لديها المال قد تكون مشغولة به، وقد تكون مذلة به على الرجل، ومن لديها الجاه كانت كذلك وهكذا..

فإذن الشيء الذي خير كله هو الدين: الذي هو الجوهر الذي يجعل الإنسان خاضعاً لله ومراقباً له في كل حال، ليس تدينا شكليا قد يهوي الإنسان ويظن أنه على خير وهو ليس على خير، فمن تباهى على الناس بتدينه ومن طغى على الناس بتدينه فليس بمتدين، بل هو مستكبر وبعيد عن الله عز وجل، فالمتدين الحق من ينظر إلى الناس نظرة رحمة ويشفق على العصاة، ويرجو لهم الخير، كما هو شأن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، بارا بالكل، عاملا على نشر الخير، مبتسما للكل فرحا، في وجه الكل، باذلا الخير للكل، هذا هو التدين الحق، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم (**الدين المعاملة**)، إذن قال فاظفر بذات الدين تربت يداك.

الأمر الآخر الكفاءة وهو أن يكون بين الزوجين كفاءة..

والكفاءة أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال (**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**)، فالأساس هو هذا، تبقى للناس وللمجتمعات معايير يبتكرونها ويخترعونها اختراعا لا شأن للدين بها، الدين قال كلمته، وبعد ذلك الناس وعوائد المجتمع تكثر فيها المعايير والمقاييس، وهذه المقاييس الاجتماعية متعارف عليها لا شأن لنا بها، نحن نتكلم عن المعيار الديني الذي جاء من الله ومن رسوله **فالمعيار هو حسن الخلق والأمانة والقيم والالتزام بالحق**، هذا هو من كان مستقيما جاداً في حياته منتجا إلى آخره، هذا هو الإنسان الكفء، إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته، فدينه وأمانته وتصرفاته حسنه وعقله ناضج هذا هو الشرط الأساسي.

المرحلة الثانية: النظر إلى المخطوبة: فهذا وجه إليه النبي صلى الله عليه وسلم، قال اذهب فانظر إليها فإنها أحرى أن يؤدم بينكما، لأن لكل إنسان مقياسه ونظرته، قد يقول إنسان عن امرأة أنها لا تعجبه ويأتي آخر فتعجبه، لأن هذه هي الصفات التي يبحث عنها، فاختلاف المقاييس ذاتية وليست عامة، هناك مقياس عامة مثلا للجمال من أجمع الجميع على أنه جمال، لكن هناك مقاييس ذاتية متفاوتة يتفاوت البشر فيها، وقد لا يكون الجمال نفسه مطلبا عند الشخص، قد ينظر في المرأة اتزان عقلها ورزانتها وحكمتها، وقد ينظر فيها أمورا أخرى، على كل لا نفصل في هذه الأمور، المهم أن النظرة قد تستدعي قبولاً عند الإنسان حينما ينظر إلى المرأة، فيكون هذا النظر إليها يجعله قابلا مقبلا عليها ويرغب في الزواج منها، أو يجعله غير راغب، فيكون يُكفى الناس الطلاق لأنهم لم يحققوا شيئا كان يمكن أن يتفادى كثيرا من الخسائر، ويكون النظر دفعا لهذه المفاسد ولأحرى أن يكون هناك استمرارا للحياة الزوجية، ثم بعد ذلك إذا توفرت هذه الأشياء هناك أيضا **الطلب من الولي، والخطبة لا بد أن تكون عن طريق ولي المرأة**، {فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ }، ثم تبقى هناك عوائد وأعراف ما لم تتناقض مع الإسلام وتتضاد معه، فهي من المعروف الذي يمكن أن يكون في إطار الشرع، والمجتمعات تتفاوت في هذا الجانب تفاوتا كبيرا، فلا يدخل الناس في حرج من هذا الجانب، وإنما المعايير الأساسية يبينها الشرع ثم يترك للناس

هامشا لكي يحققوا أفراحهم، ويحققوا مآربهم من خلاله، ما لم تتصادم مع شرع الله.

المرحلة الثالثة: العقد، لكي يتم لابد فيه من أمور منها:

أولا: أن لا يكون هناك ما يمنع من إجراء العقد: أن تكون مثلا من المحرمات عليك، وهناك ما يكون من المحرمات بشكل دائم مثل الأم والأخوات والبنات، وهناك ما يكون بشكل مؤقت، مثل خالة الزوجة وعمتها وأختها، لكن لو طلق تلك الزوجة أو ماتت يجوز له أن يتزوج منهن، المهم أن يكون العقد خاليا من الموانع.

الثاني: أن يكون فيه إيجاب وقبول: وهذه إذا توفرت هي أركان الزواج، ثم بعد ذلك حدد له الإسلام شروط لا بد منها، منها تعيين الزوجين حتى لا يكون هناك مجال للخداع والغش، لا بد أن يكونا متعينين ومعروفين فلان وفلانة من الناس، ثم بعد ذلك لا بد أن يكون بالرضا من الطرفين، أيضا لا بد أن يكون بولي على رأي الجمهور، ثم بعد ذلك الإشهاد على الزواج.

← مسألة الحقوق داخل الأسرة: سواء الحقوق المشتركة بين الزوج والزوجة أو حقوق الزوجة على الزوج أو حقوق الزوج على الزوجة أو حقوق الآباء على الأبناء أو حقوق الأبناء على الآباء، كل هذه حقوق قد بينها الشرع وحددها وفصلها حتى لا يبغي بعضهم على بعض، وهناك قاعدة عامة في العلاقة بين الرجل والمرأة، سبق الإشارة إليها، والحقوق بنيت عليها، وهي أنهما سواء إلا فيما اختلفا فيه، سواء من ناحية الاستعداد أو القدرة أو الكفاية، وإلا فهما سواء ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وهذه قاعدة عامة يبني عليها الشرع أحكامه، وهي من عوائد الحق سبحانه وتعالى المعروفة التي هي التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، فكلما كان الشيء متساويين أخذا الحكم نفسه، لا يمكن أن يفرق بين متماثلين في الحكم، وكلما اختلفا كان التفريق في الحكم من الوجه الذي اختلفا فيه، فيعطى لهذا حكم ويعطى لهذا حكم، ولذلك بما أن الرجل والمرأة بينهما جوانب اشتراك وبينهما جوانب افتراق، كانت التساوي في المشترك والافتراق في المختلف.

الحلقة (١٩)

← مسألة الحقوق داخل الأسرة

*** الحقوق المشتركة بين الزوجين:**

أولاً: حِلُّ استمتاع بعضهما ببعض: هذا أصلا عليه عقد النكاح أو عقد الزواج على هذا الأمر.

ثانياً: التوارث بين الزوجين: فكل منهما يرث الآخر على تفاوت في هذا الإرث، ولكنهما يرث كل منهما من الآخر ولكل منهما حق هذا الإرث.

ثالثاً: حفظ أسرار الزوجية: فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يخلو الرجل بامرأته ثم يظهر للناس ويخبر بما كان بينه وبين امرأته حينما أفضت إليه وأفضى إليها، فهنا النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**كأنما هو شيطان لقي شيطانة في بعض الطريق فقضى حاجته منها**)، فقالوا يا رسول الله إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن، يعني يتحدثون بما يكون من أسرار الفراش، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وبين أنه مما ينبغي ألا يتحدث فيه فهو سر ينبغي أن يكتم وأن يحفظ وخاص ولا يجب أن ينتهك، فلا يجوز للزوجة أن تخرج هذه الأسرار ولا يجوز للزوج أن يحكي هذه الأسرار.

رابعاً: حسن المعاشرة من قبل الزوج ومن قبل الزوجة، فاللطف والتودد المتبادل من الزوج أن يكون لطيفا مع زوجته ومداعبا لها ومرفها عنها وحريصا على أنسها وسعادتها، وكذلك هي أيضا تحرص على جلب السرور إلى نفسه وإلى إسعاده، فلا

تقدم من السلوكيات ما يسيء إليه، أو ما يضر أو يخدش مشاعره أو يؤذيه ويجلب له الحزن، وكذلك هو ينبغي أن يكون بهذا الشكل.

خامساً: الأناقة، يكون الرجل أنيقا ونظيفا، معطرا مسرحا لشعره حريصا على أن يكون طيب الرائحة جميل المنظر، كما قال ابن عباس قالوا لماذا يكون لك جمة وتسرح شعرك؟ قال إني أحب أن تتهيأ لي وأنا أتهيأ لها بما تحب أن تتهيأ به لي، فإذن هذا أمر أساسي، كما أنك تود أن ترى امرأتك في كمال زينتها فهي أيضا تود أن تراك في كامل زينتك، وهذا جالب للمحبة ومكون للروابط بشكل أقوى، فإذن ليست الأناقة مطلوبة من المرأة وحدها، وإنما مطلوبة من المرأة والرجل على حد سواء، يجب أن تكون المرأة متأنقة لزوجها، ويكون الرجل متأنقا لزوجته ،ومهيأة له ظروفه ويجب أن يهيئ لها الظروف وهكذا يساعده وتساعده في هذا الأمر.

سادساً: الخدمة فبعض الرجال قد يأنف من أن يخدم امرأته، وهذا أمر عجيب فالإسلام جعل الرجل الذي يخدم أهله ويعينهم من خير الرجال (**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**)، وكانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول كان النبي صلى الله عليه وسلم في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة، الخيِّر الذي يعين أهله على ما يقومون به، لأن هذا ليس من واجبات المرأة كونها تطبخ لك وتعمل لك وتنظف منزلك وترتب فراشك هذا من العشرة بالمعروف ومن الإحسان وليس من العدل، ليس من مفترضات ومقتضيات العقد، فإذن كما أنها تحسن إليك لا بد أن تقابل الإحسان بالإحسان.

سابعا: صلة أقاربها وذوي أرحامها وكذلك هي تصل أقاربه وذوي أرحامه، لا بد أن يكون بينهما هذا التكامل حتى تسود المحبة وتظهر، ولو قطعت أرحامه لظهر أثره في أسرته و لو قطع أرحامها لظهر أثرها في أسرته الرجل وهكذا التقاطع لا خير فيه، والتواصل خير كله والتراحم خير كله وبر كله، فهذه جوانب مما ينبغي من الحقوق المشتركة بين الزوج والزوجة.

❖ حقوق الزوج على الزوجة

أولا: الطاعة في غير معصية الله مادام أمرها بخير وبر فالمفترض أن تطيعه، وإن كان لها رأي مخالف تناقشه بعقلانية وحكمة، ليس الطاعة المقصود بها انسياق بعمى، وإنما قد يظن الرجل إن في هذا خير ويأمرها به، فهي قد يظهر لها من جانب أن هذا الأمر فيه جانب نقص فلا مانع من أن تناقشه فيه بحكمة وبتعقل، فربما أقنعته بهذا الشيء ولا سيما أن المرأة اليوم لم تعد تلك المرأة التي لا تعرف ولا تفهم ولا تعلم، يعني أصبح النساء في درجة عالية ومنهن الكثير ممن يفقن الرجال تعلماً وحكمة ودراية، فإذن المرأة ليس واجبا عليها الطاعة هكذا أو التسليم لأن الأمور التي يأمر بها الرجل ليست نصوص قطعية ونهائية، إنما أمور قابلة للنقاش، لكن إذا كانت من المعروف ورأت المرأة أن ذلك خير فتطيع، وإذا لم يكن فمن الممكن أن تناقشه وعلى الرجل أن يحتمل ويناقش فإن أقنعته طيب وإن أقنعها طيب وسارت الحياة بسكينة وود واحترام.

ثانياً: عدم الخروج إلا بإذنه فمن حقه ألا تخرج من بيته إلا بإذنه، لذا قال النبي صلى الله عليه إنهن أسيرات عندكم، فموجب العقد أن تكون للزوج، حاضرة في طلبه فإذا أذن لها بالخروج تخرج.

ثالثاً: أن تجيبه إذا دعاها إلى فراشه لا تتلكأ وإن كانت غير قادرة تحاول الاعتذار إليه بلطف وتبين ما هي فيه من حالة أو مرض أو تعب أو تغير المزاج النفسي، لا ترفضه رفضا هكذا بدون مبرر، فهذا أدعى إلى النفور وإلى تقاطع العلاقات، وإلى وجود الكراهية والبغضاء، لكن يجب أن يكون حتى عدم الاستقبال لهذا الطلب أن يكون بلطف وبذوق وبأدب، وأيضا الرجل يجب أن يتفهم المرأة وشعورها فليست في كل الأحوال قابلة للأنس معه، فقد تكون في حالة نفسية صعبة فعليه أن يدفع هذه العوارض بطريقة خاصة، ويحاول أن يستجلب السرور لنفسها، هذه الأمور ينبغي أن لا تكون غائبة لا يكون

الرجل يتعسف في هذا الأمر الذي إذا طلبته يجب أن تجيب في أي حالة كانت لا، هذا لا يتفق مع سنن الله سبحانه وتعالى لا السنن الكونية ولا السنن الدينية، لأن الناس تختلف أمزجتهم بحسب الأوقات وتغير هذه الأمور فلذلك لابد أن يكون هذا مراعىً وحاضرا لدى الزوج ولدى الزوجة.

رابعاً: أن تحفظه في نفسها، فلا يحدث منها ما يسيء إلى الرجل في سمعته وفي عرضه وفي فراشه، فلا توطئ بيته من لا يرضاه إلى آخره من هذه الأمور التي ينبغي أن تكون حاضرة في المرأة، فتحفظ نفسها لزوجها، لا تبيح نفسها لغيره، وكذلك أن تحفظه في ماله، فلا تأخذ منه بغير وجه حق ولا تفرط فيه ولا تبذره تبذيرا، فهي مؤتمنة على هذا المال تتصرف فيه بعقل وحكمة وفي حدود الواجبات.

خامساً: أن لا تصوم تطوعا إلا بإذنه، لأنه قد يستدعيها في أي وقت فلذلك حينما تريد الصيام تطوعا عليها أن تستأذن زوجها لأن له حق فيها وبالتالي لا يجوز لها هذا الأمر إلا بإذنه.

تلك أهم حقوق الزوج على الزوجة والتي كما قلنا أيضا يجب أن يكون حاضرا في ذهن الزوج ألا يتعسف في استعمالها، وأن يستحضر العدل والإحسان في هذه الأمور وهو يتعامل بهذه الحقوق أو يطالب زوجته بتنفيذها **أن يكون مبناها على العدل والإحسان**، وأن يكون حاضرا في العدل أن لها مثل الذي عليها، والإحسان إجراء هذه الحقوق أو طلب هذه الحقوق وفعلها بجمالية وبحسن وبلطف يجعل الحياة جميلة ويصبغها بالجمال.

❖ حقوق الزوجة على زوجها

أولا: المهر حين العقد بها يفرض لها مهرا معينا ويكون المهر بحسب ما يتراضيان عليه، قد يكون قليلا أوقد يكون كثيرا، فالنبي صلى الله عليه وسلم زوج الصحابي على الصحابية بما معه من القرآن أن يعلمها آيات هذا مهرها، وقال له التمس ولو خاتما من حديد.

ثانيا: تأمين السكن لها لا بد أن يكون لها مسكنا مناسبا لها، فلا يسكنها فيما هو دون سكنها، ولا تطالبه بما هو فوق طاقته.

ثالثا: النفقة بالمعروف، فالنفقة في المجتمع الفقير ليست كالنفقة في المجتمع الغني، وكل بحسبه، وبما لمثلها.

رابعا: العدل أن يكون عادلا في إيصال الحق، وأن يكون عادلا إذا تزوج غيرها، لأن الرجل له حق التعدد إلى أربع هذا هو شرع الإسلام، وهذا التعدد مشروط بالعدل، وإذا لم يستطع الإنسان العدل لا يحل له أن يتزوج أخرى، وهذا من الأمور التي قد يتساهل الناس فيها وينتهكون فيها محرما وشرطا شرطه الله عزوجل على الزوج وقال له:

{فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} ، فإذا أنست من نفسك العدل والدقة فيه والصرامة فيه يجوز لك أن تتزوج وأن تعدد، وإن لم تأنس من نفسك العدل فلا يجوز لك ذلك.

فإذن العدل أساس في مسألة التعدد والتي قد يفرط الناس فيها ولا يراعون حكم الله عز وجل في هذا الأمر مع تحريم الله سبحانه وتعالى وتشديده فيه.

خامسا: حقها في الإعفاف أن يعفها مما يؤدي إلى إشباعها، ومن حقها إذا لم يشبعها وإذا لم يعفها أن تطلب الانفصال منه، لذلك حتى حدد الله عز وجل لمن يؤلون من نسائهم، {لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} بين الأمرين أربعة أشهر وبعدها يحدد إما أن يكون الانفصال وإما

أن يرجع عن حلفه بأن لا يطأ زوجته، إما أن يرجع وإما أن يطلق أحد أمرين، فإذن لا ينفصل برغبته أو يحرِم المرأة من هذا الحق برغبته مدة طويلة تفوق عن أربعة أشهر، وإلا لا بد أن يكون لذلك حد، فهذا من الأمور الأساسية وعليها عقد الزواج كما سبق أن أشرنا، وأن هذا من الحقوق المشتركة الاستمتاع، ولكن لا يجوز للزوج أن يحرم زوجته كما لا يحل للمرأة أن تمتنع عن زوجها بغير وجه حق.

سادسا: الإذن لها بزيارة أهلها.

سابعا: حرية التصرف، لا يكون الرجل أو يظن الرجل أن من حقه أن يتصرف في مال المرأة أو في رأيها أو في دينها، فهذه حقوق مضمونة للمرأة، حق الدين، وحق الرأي، وحق التفكير، وحق التصرف في المال والذمة الكاملة للمرأة كلها لها، ولذلك لو تزوج كتابية من أهل الكتاب وأراد أن يجبرها على الدين لا يحق له ذلك، فإن دخلت طواعية فذلك شأنها، وإن لم تدخل طواعية فلا يجوز له أن يجبرها على هذا، كذلك لا يجوز له أن يمنعها من إبداء رأيها بحق أو التصرف في مالها، فهذا لا دخل للزوج فيه، فبعض الأزواج يظن أنه بمجرد زواجه أنه يستطيع أن يتحكم في زوجته فلا تتصرف في مالها إلا بإذنه، وهذا من التعسف ومما لم يأذن به الله عز وجل.

❖ حقوق الأبناء على الآباء

أولا: حق الانتساب، ولذلك شدد في من انتسب إلى غير أبيه (**لعن الله من انتسب إلى غير أبيه**) فهنا الانتساب إلى الأب هو حق للأب أن الابن ينتسب إلى أبيه، وحق للابن لا يجوز للأب أن يرفضه فمادام ولد على فراشه فهو ولده.

ثانيا: التسمية أن يختار الاسم الحسن لمولده سواء كان ذكرا أو أنثى.

ثالثا: تحمل حضانته وتحمل رضاعته: فلو أبت الزوجة مثلا حينما تكون مطلقة أن ترضع الأولاد أو رفضت أن تحضنهم، فهنا يجب على الزوج أن يتدبر أمر رضاعة ابنه ويدفع الأجرة لهذا الرضاع وكذلك للحضانة.

رابعا: للأم حق الحضانة: لو افترقا لأنها هي أولى بالطفل في المرحلة الأولى يحتاج إلى الحنان والمحبة والعطف، وهذا يتوفر عند الأم بشكل أكبر لأنها المرافقة الأكثر له والتي يمكن أن تعطيه هذا الجانب، فالأب يكون فاقدا له في الغالب وبالتالي أعطيت حق الحضانة.

خامسا: العقيقة عنهم :حينما يبلغون السابع أو مضاعفاته يعق عنهم أو يقدم عنهم العقيقة التي هي شاتان للغلام وشاة للأنثى.

سادسا: الختان للذكور.

سابعا: واجب النفقة للأولاد.

ثامنا: العدل (**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**) فالنبي صلى الله عليه وسلم حينما جاءه أحد الصحابة وأراد أن يعطي أحد أولاده شيئا وأراده أن يشهد على ذلك قال أَكُلُّ أولادك أعطيتهم مثله؟ قال: لا، فإني لا أشهد على زور، فإذن نهى النبي صلى الله عليه وسلم واعتبره زورا أن يعطي بعض الأولاد شيئا ويحرم بعض الأولاد، وهذا يقع فيه بعض الناس حينما يفاضلون أولادهم مفاضلة فيعطون البعض أشياء ويحرمون البعض من أشياء أخرى، وهذا له سر عظيم حتى لا يكون هناك أحقاد بين الأولاد، يحقد بعضهم على بعض ويغضب بعضهم على بعض ويمكر بعضهم ببعض، لكن إذا كانوا يعاملون بوجه عادل لن يشعر أحدهم بالتفاوت، وهذا أمر دقيق وحكمة عظيمة من حكم الشرع في إجراء العدل بين الأولاد.

تاسعاً: الإحسان والرأفة والرحمة واللطف والتودد ولذلك استنكر النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك الأعرابي الذي قال

أتقبّلون صبيانكم؟ لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن والحسين رضي الله عنهم، وقال إن لي من الأبناء عشرة ما قبلت واحدا منهم، قال عليه الصلاة والسلام وهل أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك؟ فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه من الرحمة تقبيل الأولاد والعناية بهم وضمهم إلى الأحضان وإعطائهم الحنان وإفاضته عليهم وتليين الوجه لهم ورعايتهم والمزاح معهم والتلطف بهم.

عاشرا: مسألة الإرث فهم يرثون من آبائهم كما أن آباءهم يرثون منهم.

الحلقة (٢٠)

❖ حقوق الآباء على الأبناء

حقوق الآباء على الأبناء وبينا أن مدارها على الإحسان لأن الأبناء لن يفوا آباءهم الحق مهما حاولوا، فلو لم يكن إلا أنهما سبب لوجودهم في الحياة لكفى، وفي ذلك قال الله عز وجل { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }.

١-فيأمرهم بالإحسان والحرص على بذل الإحسان إلى أقصى حد بقدر ما يطيقه الإنسان لوالديه، فيحرص على برهما، والذلة لهما، والإحسان لهما قدر الاستطاعة، ومراعاة مشاعرهما، والتلطف بهما، وعدم خدش هذه المشاعر، فيكون عندهما في غاية الذل في غاية الأدب لهما والإكرام لهما، وخدمتهما فيما يحتاجانه، وإدخال السرور على أنفسهما بأي شيء يرى أنه يدخل السرور كجلب هدية لهما وإخراجهما لنزهة، ونحو ذلك مما يرى أنه يدخل السرور، وكل إنسان يعرف ما الذي يسر والديه، فيحاول دائما أن يدخل السرور على أنفسهما من هذه الناحية التي يرى أنها تجلب لهما السرور وتجلب لهما الرضا عن ولدهما، سواء كان ابناً أوبنتا فعندما نقول الولد نَعُمُّ بذلك الابن والبنت.

٢- إرث الوالدين من الولد كذلك من حقوق الآباء على الأبناء وهذه من الحقوق التي شرعها الله عز وجل، فلو فرضنا أن الولد كان سابقا في الوفاة فالوالد يرث {آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً}.

٣- ومن ذلك إكرام صديقهما والدعاء لهما وزيارتهما، فإذا كان الإنسان لا يقيم مع والديه فليحرص على الزيارة دائما والتواصل الدائم فلا ينقطع عن والديه، وكذلك لو توفيا يزور قبريهما ويسلم عليهما، وكذلك إكرام صديقهما وبِّر من يكمن فيه برهما كصلة الأرحام ونحوهما من أقاربهما والدعاء لهما، وذلك أن أحد الصحابة سأل النبي صلى الله عليه وسلم هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: (الدعاء لهما، والصلة التي لا تتم إلا بها، وإكرام صديقهما) أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فهو ذكر جانب الصلة وجانب الدعاء وجانب إكرام الصديق.

رابعاً: من خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام تحديد مركز المرأة في المجتمع:

وفي ذلك أن للمرأة دور لاينكر في المجتمع، فكما قلنا أن المرأة مكملة للرجل والرجل مكمل للمرأة، فلكل منهما أدوار مشتركة وأدوار مختلفة تكمل بعضها بعضاً، لا يمكن أن تتم الحياة إلا بوجود الطرفين معاً، ولو فرض فقد أحد الطرفين لم تقم الحياة قياماً صحيحاً بل سيؤدي ذلك إلى انقراضها، ومن ذلك

١-اعتبار إنسانية المرأة بمساواتها بالرجل في أصل الخلقة {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} وقال { إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} فهي من هذا الجانب شقيقة الرجل، والنبي صلى الله عليه وسلم أشار لذلك وقال (النساء شقائق الرجال) فهي شقيقته ومكملته {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}، فلا يمكن أن يكمل الرجل إلا بهذا الشق المكمل له.

٢- **حق المرأة في الحياة** فكما أن للرجل حق فكذلك للمرأة حقها في الحياة فهي نفس معصومة كالرجل سواء بسواء، ومكرمة سواء بسواء، ومساوية له في القصاص، لو قتل رجل امرأة أو قتلت امرأة رجل، يقتص من أحدهما بالآخر، فهما نفسان متساويان على حدٍ سواء.

٣- **المساواة في بعض الأشياء** التي سبق وأن أشرنا إليها كأن لا تُزوج إلا برضاها، كما أن الرجل يتزوج برضاه وبرغبته، كذلك إبطال العادات الجاهلية التي تمتهن المرأة أو تراها عاراً أو تراها قاصرةً وتُغلظ في عقوبتها لو وقعت في فاحشة في حين أن الرجل قد لا يرى فيه عيب إذا وقع في فاحشة، مع أن الفاحشة عيب للجميع وعلى حدٍ سواء، ولذلك الإسلام جعل عقوبة المرأة والرجل في الفاحشة سواء، ولا يفرق بين الرجل والمرأة فكلاهما سواء فالبكر كالرجل البكر، والثيب كالرجل الثيب في العقوبة حينما تحصل الفاحشة من أحدهما، لا فرق بين الاثنين، في حين أن أصحاب العوائد الجاهلية يفرقون في هذا الجانب، فيغلظون العقوبة على المرأة، وربما لا يعاقبون الرجل بشيء، فهذه من العوائد الجاهلية التي مسحها الإسلام واستنكرها، لأن الرجل والمرأة على حدٍ سواء فلكل منهما نفس الحاجات ونفس التطلعات فإذن نفس المسؤولية وبالتالي سيكون الجزاء نفس الجزاء، لا يختلف سواء كان رجل أو امرأة.

٤-**تبرئتها من الذنب الأصلي التي ترى بعض الأديان المحرفة أن المرأة تحملها،** فمثلا نعرف عقدة الذنب الأصلي أو الخطيئة التي البعض يرمونها على أمّنا حواء في بعض الديانات، أما في الإسلام لم يجعل الخطيئة الأصلية بسبب المرأة أو أنها هي التي دعت الرجل للأكل من الشجرة ونحو ذلك

بل حمّل الرجل كامل المسؤولية {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} فحمّله المسؤولية ولم يحمل حواء المسؤولية، وبالتالي تبرئتها مما تتهم به من ذنب أصلي ومن إذلال للرجل ومن إغواء ومن شيطانية، فليست هي شيطان وإنما هي إنسان كما أن الرجل إنسان، ولكل منهما مطالبة في الآخر التي هي فطرة الله كما قلنا، وبالتالي لا يمكن تحميل المرأة الإثم، فللرجل قابلية وللمرأة قابلية، ولولا القابلية في كلا الطرفين لما حَصَل ما قد يحصل من مساوئ نتيجة التقاء الطرفين بغير وجه حق، وهذه من الأمور المهمة التي أكدت إنسانية المرأة وتساويها مع الرجل في الإسلام.

٥- **أن الإسلام بين ما لها وما عليها بحسب موقعها**، فالمرأة موقعها من الرجل يختلف، فقد تكون أما أو جدة وإن علت، أو تكون بنتا أو بنت ابن وإن نزلت، وقد تكون أختا أو خالة أو عمة، وقد تكون زوجة، فإذن بحسب موقعها من الرجل فتأخذ حكمها، فإن كانت أما يكون واجب الإنسان عليها فاق العدل إلى الإحسان، وإن كانت بنتا فعليه العدل والإحسان، والزوجة كذلك العدل والإحسان بل حتى الأبوين كما ذكرنا فاق أمرهما العدل ولن يكافئهما ولن يستطيع أن يعدل معهما، ولكن لابد من الإحسان، الإحسان فائق على العدل حسب استطاعة الإنسان وقدرته، فإذن بيان موقع المرأة وبيان مالها وما عليها بحسب موقعها، فليست المرأة في كل الأحوال زوجة، قد تكون زوجة، وقد تكون أما، وقد تكون أختا، إلى آخره فلكل حالة مالها أو ما يناسبها من الأحكام.

٦- **فرض لها نصيبا من الميراث** بعد أن كانت هي نفسها تُورَث، وحدد لها نصيبا في الميراث قد يزيد في بعض الأحيان عن الرجل، مثل لو توفي رجل عن زوجة وبنت وعم مثلا، البنت في هذه الحال ستأخذ النصف وسيكون أكثر من عمها، فإذن ليس ما يقوله الآخرون من أن المرأة دائما تأخذ أقل من الرجل ليس صحيحا، فبحسب موقعها تأخذ إما أقل أو أكثر، وبحسب وضعها إن كان لها إخوة أو كان لها عصبة، فيختلف نصيبها بحسب موقعها من الإرث، ولا سبيل لهؤلاء الذين ينظرون بعين واحدة الذين يقولون إن الإسلام لم يعطِ المرأة إلا نصف مال الرجل، فهذه حالة وتلك حالة أخرى ولكل حالة

ما يناسبها، بناء على القاعدة الأساسية في إقامة الحياة الزوجية بل الحياة الإنسانية كلها بالتسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين.

٧-حق التملك فأعطاها حق أن تكتسب وتبيع وتشتري وتهب وتقرض، وكل شيء من هذه الحقوق لها، لا دخل للزوج فيها ولا يتصرف فذمتها المالية مستقلة عن ذمة زوجها، وتتحمل مسؤوليتها كاملة، وليس للزوج تدخل فيها، إن أذنت له في التدخل يحق له التدخل، وإن لم تأذن له لا يجوز له أن يتدخل في قليل ولا كثير، ولا يجوز له أن يطالبها بالإنفاق، فالإنفاق عليه هو واجب، ولا يجوز له أن يطالبها به، وإن أنفقت بطيب نفس فذلك إحسان منها ،وإن لم تنفق فلا شيء عليها مهما كان غناها وتجارتها في هذا الجانب.

٨- حق التعليم وأتاح لها الإسلام أن تتعلم ما ينفعها، وأن تحصل على العلم إن كانت مطيقة وقادرة عليه، وحث الكل عليه، فطلب العلم واجب على كل مسلم، وهو يشمل المسلم والمسلمة.

٩- حق العمل فلها أن تعمل ولكن للعمل شروط:

١-لابد من إذن الزوج للعمل، فإذا توافقا وتراضيا على أن تعمل لأن العمل سيقتطع من وقته المخصص له ويكون على حسابه، فلا بد أن يأذن، ولها أن تشترط عند الزواج العمل، ولا يجوز للزوج أن ينكث عهده (المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً)

بعض الناس ربما يقول إي خلينا نتزوج و بعد الزواج يصير خير، فيقبل بالشرط وبعد الزواج يبدأ يضغط على زوجته إذا كان كذا وإلا يطلقها، ويتعسف في استعمال حقه وهذا لا يجوز وهو هنا يأثم، لأنه ما تراضى مع زوجته عليه يجب عليه التنفيذ وفق العقد ووفق العهد، وإن تراضوا بدون تعسف فلا بأس وهذا أمر يرجع إليهما.

٢- أن لا يترتب عليه محظور شرعي كالخلوة بأجنبي عنها.

٣- يكون فيه التزام بالأدب وليس فيه إبداء الزينة للغير.

٤- وأن لا يكون مرهقا لها كالأعمال الشاقة كالحفر والبناء وباقي الأمور التي لا تطيقها المرأة .

لكل من المرأة والرجل تميزا، فللرجل القوة والخشونة والقدرة على الحماية، كذلك المرأة فيها جانب الحب والحنان والعاطفة والقابلية للتربية، وإكمال هذا الجانب من شخصية الرجل فهو بحاجة للمرأة في صغره كـأم ترعاه وتعطيه هذا الجانب، ثم الزوجة تستمر في إعطائه هذا الجانب في كبره، ثم الأولاد يسببون جانبا من الحنان والعطف حين يكون كبيرا ويضعف، والرجل والمرأة بحاجة إلى هذا الجانب فهي مسددة من جانب الوالدين أولا، ثم الزوجين ثانيا، ثم الأولاد والبنات ثالثا، وهذه هي التكاملية في بناء الأسرة التي راعى فيها الإسلام فطرة الناس وجبلتهم وأمور حياتهم.

وهناك أمور سنها الإسلام وأدب بها الرجال والنساء كل فيما يخصه

أشير إليها بسرعة وهي:

١. تحريم الخلوة وذلك حفاظا على المجتمع، الخلوة بالأجنبي وابتعاد المرأة عن الرجال خشية الافتتان إذا كان سيؤدي إلى فتنة.

٢. وجوب إخفاء الزينة وعدم التبرج.

٣. واللباس الساتر الذي لا يصف جسمها.

٤.التزام الأدب في المشي والحركة والكلام :{ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا}

{وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ} والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (في آخر الزمان صنفان من أهل النار لم

أرهما بعد رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت).

نشير هنا إلى **قضية القوامة**:

وهي مما قد يفهم خطأ ويدور حوله دائما الجدل بأن المرأة مظلومة ولماذا يسيطر الرجل عليها؟ لماذا القوامة عليها؟ وهل هي ناقصة وهكذا هذه أمور لها نظرات جزئية أحادية، ونظرات تنطلق من وضع اجتماعي معين، ولو كان الإنسان وسع رؤيته وناظر في طريقة الشرع في إقرار هذا الشيء لسلم به،

فالقوامة لها جانب مادي وجانب معنوي.

الجانب المادي: يتمثل في الإنفاق والحماية وغير ذلك.

الجانب المعنوي: لا يعني التدخل في حرية الدين وحرية الرأي، وإنما في حسن الإدارة بحسب قابلية الرجل للإدارة أكثر من هذا الجانب، وهذا أمر مشاهد معروف.

وقد يقول قائل: ولكن من النساء من قادت الشعوب.

فنقول: هات لنا نسبة النساء القائدات على نسبة الرجال على مدار التاريخ، هن أفراد ونحن لا ننفي وجود أفراد من النساء يفقن الرجال على الإطلاق، وإنما نقول أن الأعم الأغلب أن الرجال هم الأقدر على القيادة، وهو الأغلب وليس على الإطلاق، فبناء عليه تأتي أحكام الشريعة وتقرر بناءً على الأعم الأغلب الذي يحقق المصلحة ويدفع المفسدة ،ولذلك على مدار التاريخ سواء كانت الأمم مسلمة أو كافرة الغالب أن قادتها رجال، ولكن قد يقدن النساء وهن لديهن قدرات فائقة وهؤلاء نوادر، ويظهرن في التاريخ فتره فلا يترتب عليهن أحكام ولا يمكن أن يجرى عليهن تقرير أحكام شرعية يترتب عليها صلاح المجتمعات وفسادها.

على هذا الأساس أعطي الرجل القوامة، وللمرأة حقوق متعددة وهي أساس الرجوع للعدل والإحسان وضبط القوامة بهما أساس من أسس ضبط القوامة وعدم تعسف الرجل في استعمالها، فهذا الجانب الأول، فهو لم يعطَ القوامة بإطلاق ولكن قيد وأسست القوامة على هذه الأساسات السابقة: **العدالة، المساواة، الشورى، العشرة بالمعروف.**

لماذا القوامة؟

لأن المجتمعات البشرية تفتقر إلى قائد، وهنا نفكر في صفة القائد الحكيم الذي يستطيع أن يدير الأمور بمهارة، وعادة يكون **القائد عنده** احترام المجموع واستشارتهم، وإتاحة الفرصة للمبادرة وإبداء الرأي، والمرجعية النظامية، فهناك نظام يرجعون إليه ويكون مرجع للقائد ومن يقوده، والقدرة على اتخاذ القرار، تأمين الحاجات، وضبط الأدوار، وتوجيه الدفة، تحمل الأعباء، والكفاية والأمن، وهذه الصفات تتوفر في الغالب في الرجل أكثر من المرأة، ولذلك أعطي حق القوامة، لحاجة الأسرة إلى إدارة أدوارها وإلى كفايتها وإلى الدفاع عنها والأمن والإنفاق وغيره.

لذلك بين الله عز وجل هذا الأمر، وأن هذا التقسيم بناء على أدوار كل من الرجل والمرأة، فالرجل قادر على التكسب بقوة، وعلى مواجهة الأمور الخشنة، وعلى الحماية والدفاع وغيره، والمرأة لديها أدوار قد لا يستطيعها الرجل، كالحمل والولادة والإرضاع والتربية وإلى آخره، وهذه مما لديها القدرة والقابلية عليها، فهذه قد تشغلها وتشل قيادتها بعض الشيء، فإذن القوامة تكليف وليست استبدال، وهي محدودة لا يجوز للرجل التعسف في استعمالها، ومشروطة بتلك الأسس وبصفات القائد الحكيم الذي يأمر به الشرع، فإذا اتضح لنا ذلك وجدنا أن القوامة لا تعني التعسف ولا إذلال المرأة والاستهانة بها،

وإنما أجريت على مجرى العادة ومجرى السنن، وأن هذا هو الأساس، ولذلك عللها الحق بقوله {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}، فعللها بالعلتين معا، ولو فرضنا أن الرجل تعسف باستعمال القوامة فيأتي دور القضاء في رد هذا التعسف وإنصاف المرأة من تعسف الرجل.

فإذن القوامة محدودة بحدود:

أولا بالدين، والآداب، والأخلاق، وما أمر به الرجل وما أمرت به المرأة.

الأمر الثاني هي محدودة بالحكم والقضاء والسلطان، لابد حينما يتجاوز الرجل ويتعسف باستخدام القوامة، هناك من يرده إلى صوابه فليس له الحق مطلقا في التصرف في المرأة.

خامسا: **من الخصائص للنظام الاجتماعي أنه جعل من مسؤولية الفرد إصلاح المجتمع**

وحمله هذا الجانب وذلك عن طريق أمور وهي قد سبق الحديث عنها: التعاون على البر والتقوى، والتناصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحرص على إصلاح الأرض وعدم إفسادها {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم**)، ذلك لأن الفرد يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه، ويتوقف قيام المجتمع الصالح على نشاط أفراده وبذلهم وجهودهم في إصلاحه والمحافظة عليه، ولكي تحصل النجاة من الفساد الدنيوي العاجل، ومن العقاب الجماعي، ومن العقاب الأخروي حين يفرط الأفراد في واجبهم في الإصلاح وفي نشر الخير وفي نشر البر والتقى وفي التعاون في المجتمع، ويحذر الله عز وجل المجتمعات بقوله {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً}.

فإذن المجتمع يحدث فيه تظالم ويحدث فيه أخطاء وسيئات وكذا، ولكن كلما كان هناك فئات واعية ومستيقظة للانحلال للفساد للأخطاء للمعاصي توجه وترشد الناس وتأخذ بيدهم إلى الخير وتوجهم وتضحي وتبذل الجهود لرعاية المجتمع وتشعر أن الكل في سفينة واحدة وأن هلاك البعض هو هلاك للكل ولابد أن يكون هناك اهتمام لكل الأطراف على حد سواء، فكلما كان الأمر كذلك كان المجتمع بخير وسعادة وأمن وبر وسلام، هكذا في هذه الحلقة نكون قد ختمنا الحديث عن النظم الإسلامية.

المراجع:

مراجع أساسية:

١. المدخل لدراسة النظم الإسلامية/ د. محمد رأفت سعيد.

٢. معالم الثقافة الإسلامية/ د. عبد الكريم عثمان.

٣. الثقافة الإسلامية (مستوى أول وثالث) مجموعة من العلماء

٤. مقرر مادة الثقافة بجامعة أم القرى/مجموعة من العلماء

مراجع عامة:

١. مصنفة النظم الإسلامية/د. مصطفى وصفي.

٢. نظام الحياة في الإسلام./أبو الأعلى المودودي.

٣. نظام الإسلام ـ الحكم والدولة/محمد المبارك.

٤. النظم الإسلامية/صبحي الصالح